الإعلام سمة العصر

الطفل في قبضة الشاشة

عبد الحليم حمود

دار الهادي

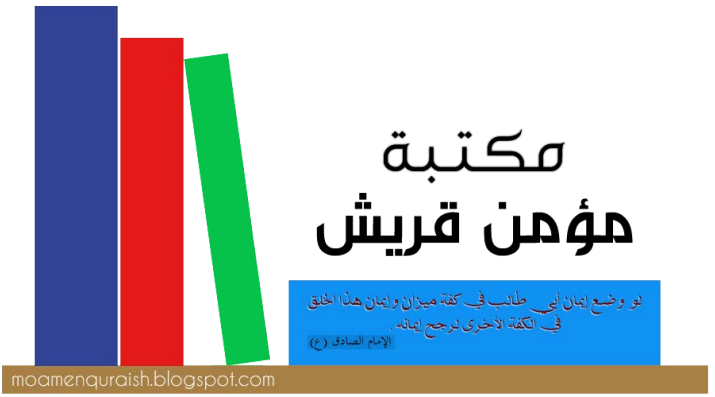

الطفل
في قبضة الشاشة

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

ISBN : 978 - 9953 - 503 - 43 - 1

دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف: ٥٥٠٤٨٧/٠١ - ٨٩٦٣٢٩/٠٣ - فاكس: ٥٤١١٩٩ - ص.ب: ٢٨٦/٢٥ غبيري - بيروت - لبنان

Tel.:03/896329 - 01/550487 - Fax: 541199- P. O. Box: 286/25 Ghobeiry - Beirut - Lebanon

E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com

الإعلام سمة العصر

الطفل في قبضة الشاشة

عبد الحليم حمود

دار الهادي
للطباعة والنشر والتوزيع

مقدمة

الدخول إلى عالم الطفل والمؤثرات التي تؤسس لبناء جيل المستقبل، أمر في غاية التعقيد، خاصة إذا انطلقنا من المفاهيم التي تشكلها الشاشة (التلفزيون والكمبيوتر). وما يزيد الأمر صعوبة تلك الدراسات المتناقضة، الصادرة عن أهم المعاهد في العالم، التي يرى بعضها أن الشاشة عنصر سلبي هدام، يربي شخصية الطفل على العنف في حين يرى البعض الآخر أن للشاشة محفزات تطويرية للذهن، ومنافع لبناء الشخصية، نظراً لدائرة المعارف التي يمكن للشاشة أن توفرها، عدى عن الترفيه.

كتابنا هذا، سعى لعرض مختلف الآراء والدراسات، التي طالت الإعلانات الموجّهة للطفل وألعاب الفيديو وبرامج الأطفال، المعبئة بالرسائل الكثيرة، التي تصل إلى السياسة. النماذج عموماً متسلحة بأرقام وإحصاءات جرت في الغرب كما في الشرق، وتنوعها يعكس حجم المعضلة التي تطرحها الشاشة التي فرضت وجودها في كل منزل، إذا لم نقل في كل غرفة منه.

إذاً هو أمر واقع، وما على الأهل سوى السعي لترشيد مادة هذا الجهاز، للوصول إلى منطقة وسطى تسمح بمجاراة العصر، دون الانجراف الأعمى في ما نظنه قوانين ثابتة لا حول لنا ولا قوة في تغييرها.

الأبعاد السلبية

العنف على الشاشة

الأطفال هم الضحايا الأكثر هشاشة والأسرع سقوطاً، لأن التجارب المروّعة تدمر وجودهم الداخلي حين يسلبون الإحساس بالأمن والثقة بالنفس والاطمئنان إلى الحياة برمتها، وليس من الضروري أن يتعرض الأطفال أنفسهم للتجارب المروعة ويكفي أن يروها تصيب الآخرين، إنَّ مشاهد العنف ـ حتى من الآخرين ـ لها تأثير كبير غير محدود على طبع سلوك الأطفال بالعدوانية، والميل إلى ممارسة العنف كوسيلة للدفاع عن الذات، ولهذا وصفت الحروب والنزاعات المسلحة بأنها كوارث من فعل الإنسان، لأنها تقوض النظم القائمة، وتخلق حالات من التوتر الجماعي تسببه الخسائر البشرية والمادية، والنظرة السلبية إلى وقائع الأمور، والإحساس بخطر الموت أو الإعاقة، وترهق هذه العوامل كاهل الفرد وتضعف قواه في المقاومة والتأقلم معاً[1].

ويجد الأطفال في التلفزيون مشاهد عديدة للنزاعات المسلحة التي تتسابق بعض القنوات الفضائية إلى عرضها، إذ يشاهد الأطفال أطفالاً تقل أعمارهم عن ثماني عشرة سنة مجندين ومقاتلين في نزاعات مسلحة، على رغم أن ذلك محرم دولياً، إذ يبلغ عدد الأطفال المجندين في العالم اليوم مئات الآلاف، ويجد الأطفال في الجو

(1) محمد مرسي ـ الفنون 1 ـ 4 ـ 2004.

التلفزيوني الذي تشكله الفضائيات للنزاعات المسلحة أطفالاً لاجئين مع ذويهم أو آخرين افتقدوا الأهل والأرض، إذ يزيد عدد اللاجئين من الأطفال اليوم على نصف أعداد مجمل اللاجئين في العالم. ويشاهد جمهور التلفزيون من الأطفال أقراناً لهم قتلى تلقى أجسادهم في ساحات المعارك، وآخرين بترت أعضاؤهم بسبب المقذوفات، كما يشاهدون أطفالاً يتعرضون لظروف قاسية ومعاملة سيئة، مثلما يشاهدون أطفالاً رسم الفقر والجوع على وجوههم وأجسادهم علامات بارزة. ويشاهد جمهور الفضائيات من الأطفال أطفالاً لا يجدون لعباً غير أن يلعبوا بالألغام التي يغرسها المتنازعون في بؤر النزاع، تلك الألغام التي سرعان ما تنفجر في وجوه اللاعبين الصغار. ويشاهد جمهور الفضائيات من الأطفال مئات المشاهد العنيفة في عالم نزاعات الكبار مثلما يشاهدون الموتى الذين تتركهم الحروب ضحايا، وقد انتفخت أجسادهم أو تقاطرت منها الدماء، مثلما يشاهدون أعمال العنف الأخرى والتعذيب والاعتقال والترحال[1].

وهكذا، يتعرض الأطفال إلى أعمال العنف والرعب، وربما يعود إقبالهم على هذا النوع من البرامج إلى أنهم لا يجدون فيها شيئاً من وحي حياتهم أو من تجاربهم الشخصية، إذ يبدو كل شيء فيها ممكناً، وقد يعود إلى أن بعضهم لا يفهمها فهماً جيداً، ذلك أن فهم الحوادث ومجريات الأحداث تخفف القلق والرعب بشكل كبير. ومن هنا، فإن أعمال العنف في النزاعات المسلحة تنشر القلق في نفوس الأطفال وتزيد مخاوفهم.

(١) المرجع السابق.

وعلى هذا، فإن الأطفال ضحية للعنف والنزاعات المباشرة، حيث يلاقون الموت والإصابات والخوف والدمار بسبب المشاركة في النزاعات المسلحة، وهم حين يكونون جمهوراً للتلفزيون يتأثرون بما يعرض عبر شاشاته على مستوى المشاعر والتفكير والسلوك، وقد ثبت أن برامج العنف والنزاعات المسلحة من أكثر الموضوعات تأثيراً في الطفولة. وأطفال الوطن العربي يتعرضون، مثلما كثير من أطفال العالم، لتأثيرات النزاعات المسلحة بصورة مباشرة، ويتعرضون أيضاً لمشاهد الكثير من النزاعات عبر الفضائيات.

إنَّ تكرر تعرض الأطفال لمشاهد النزاعات المسلحة يقلل، بمرور الوقت، من حدود اكتراث الأطفال بما يحصل من أحداث واقعية في الحياة اليومية، وكثيراً ما يشاهد الأطفال أحداثاً مؤلمة، ومع هذا تكون ردود أفعالهم عابرة، ويرجع ذلك إلى عوامل متعددة، إلا أن من بينها أن التلفزيون جعل كثيراً من الأحداث صوراً متواترة ولا تثير إلا ردود أفعال ضئيلة أو عابرة بوجه عام، فإن اللامبالاة العاطفية قد تقود إلى قدر من التبلد العاطفي، أو إضعاف مستوى النمو الانفعالي للطفل مع إضعاف القدرة على التوحد في بعض المواقف، مما يعد خروجاً عما تسعى إليه التربية العاطفية[1].

ومن بين تأثيرات مشاهد النزاعات المسلحة في التلفزيون أن الأطفال يدخلون إلى عالم الكبار قبل الأوان، ويتعرفون إلى أساليب من طرق حياتهم لا يمكن التعرف عليها لولا التلفزيون، لذا فإن تلك المشاهد تزيد من اقتحام الأطفال عالم الكبار، وهو عالم غريب في ثقافته عن عالم الأطفال.

الأمثلة المستندة إلى دراسات علمية، كثيرة، هنا نماذج منها:

(1) المرجع السابق.

التلفزيون يزيد أطفال أميركا عنفاً

أظهر تحليل جديد لست دراسات تمت في أميركا الشمالية أن مشاهد العنف التي يعرضها التلفزيون وألعاب الكمبيوتر العنيفة أسهمت في زيادة العنف بين الأطفال.

ووجد كيفين براون وكاترين هاميلتون ـ غياتشريتسيس من جامعة برمنغهام أدلة متصلة على أن الأطفال الصغار الذين شاهدوا لقطات عنيفة في التلفزيون أو في السينما أو مارسوا ألعاب فيديو عنيفة أظهروا ألعاباً وسلوكاً يتسمان بالعدوانية.

وقال الباحثون في مقال نشرته مجلة «لانسيت» الطبية البريطانية إنَّ التأثير «ضئيل لكنه مهم» لكن من المرجح أن يكون قصير الأجل. وأوضحت الدراسة أن المراهقين أقل تأثراً بهذه الظاهرة كما أن العوامل البيئية مثل الأسرة تخفف من تأثيرها. وأشار البروفيسير براون «قد يكون من المهم للآباء أن يمارسوا الاهتمام نفسه بوسائل الترفيه الإعلامية الخاصة بالبالغين عندما يتعاطون الأدوية والمواد الكيماوية في المنزل».

وذكر إنَّ تعرض الأطفال «لمشاهد عنيفة أو جنسية مبالغ فيها قد يعد حتى شكلاً من أشكال سوء المعاملة الشعورية».

أطفال اليمن ضحية العنف التلفزيوني

أما في اليمن فقد توصلت دراسة أكاديمية أجرتها جامعة صنعاء إلى أن مسلسلات العنف التلفزيوني تترك تأثيراً بواقع 51٪ بالمئة على أطفال اليمن، وأن النسبة الأعلى منها بين الذكور بواقع 60٪ فيما باقي النسبة تخص الإناث.

وأشارت الدراسة إلى أنها رصدت تأثر الأطفال بالعنف

التلفزيوني من خلال ثلاثة متغيرات شملت المستوى الاقتصادي، ونوع المدرسة، والجنس، وأن تأثر الأطفال بالعنف كان تأثراً نفسياً وسلوكياً من خلال إبداء الإعجاب بالرسوم المتحركة التي فيها قتال ومعارك. وأما الأطفال الذين يعجبون ببطل الفيلم في المطاردات والقتال فنسبتهم 50 بالمئة، والأطفال الذين يستمتعون بمشاهدة إطلاق النار 46 بالمئة، كما تبين أن نسبة 39 بالمئة من الأطفال يقومون بتقليد الحركات التي يشاهدونها لأبطال الأفلام القتالية.

وأشارت نتائج الدراسة التي استمرت عام ونصف إلى متوسط مشاهدة التلفزيون عند الأطفال يصل في اليوم إلى ساعة وخمسة وأربعين دقيقة في الأيام الدراسية. وأظهرت وجود ترابط بين عدد ساعات المشاهدة للقنوات الفضائية ونسبة تأثر الأطفال بالعنف حيث إن نسبة العنف تزداد كلما زادت ساعات المشاهدة عند الأطفال[1].

انعدام الحس

هنا «مربط الفرس»، كما يقال، حيث أنَّ الأهل يتركون أولادهم أمام شاشة التلفزيون من أجل الحصول على بعض أوقات الراحة بعد يوم طويل من العمل، كي ينصرفوا بدورهم إلى متابعة بعض البرامج الاجتماعية أو السياسية أو المسلسلات بغية الاسترخاء ومشاهدة ما فاتهم خلال الساعات السابقة التي كانوا منشغلين فيها. وهكذا يكون الأطفال موجودين وحدهم أمام شاشة خاصة في غرفهم موصولة أيضاً بالـ«دش» من دون أي رقابة أو قانون.

(1) السفير 14 ـ 5 ـ 2007.

أصبحوا يعيشون «أمام» التلفزيون ومعه، في انصهار لا محدود مع «صندوق الفرجة» حيث يختلط الحابل بالنابل، المقبول بغير المقبول، المسموح بالممنوع، والواقع بالخيال.

عقول عذراء هشة تنتهك حرمتها مشاهد وأفكار عنيفة، والطفولة على المحك. تساؤلات كثيرة تطرح عن واقع مفروض ومرفوض، فلم لا يبقى التلفزيون وسيلة ترفيه وتثقيف؟ ولماذا لا يتم التحكم في ساعات المشاهدة وفي نوعية البرامج كي لا يصبح إرهاباً متنكراً بلباس التكنولوجيا يلقن الأطفال جرعات مفرطة وعشوائية من الصور والحوادث؟

تثبت الدراسات والإحصاءات أنه وباستثناء ساعات النوم، يمضي الأولاد معظم وقتهم في متابعة برامج التلفزيون. وتشير إلى أنه ومع بلوغ الولد سن السادسة عشرة يكون قد جلس أمام الشاشة أكثر مما جلس على مقاعد الدراسة، مع غياب شبه تام للأهل في مرحلة مهمة من حياة أطفالهم حيث تتكوّن الشخصية وتصنع الأفكار ويحدد سلم المثل والقيم. وهكذا يجد الطفل نفسه وحيداً مع «فيروسات» تهدّد مناعته الذهنية والنفسية والخلقية[1].

في الماضي كان خيال الطفل مدفوعاً إلى اكتشاف الحقائق وكسب المعرفة عبر طرق يدوية تحسّسية، تتسم بكثير من الجهد الشخصي والدهشة، كما كان الكتاب واللعب في الهواء الطلق والركض من هواياته المفضلة. أما اليوم فتجده مسمّراً أمام علبة تمطره بوابل من الأفكار المتباينة، آمنة كانت أم خطرة، صحيحة أم مشوّهة، مقبولة أم مرفوضة، وهو لا يحرّك ساكناً بل يمتص كل

(1) زكية النكت رحمة، النهار 11 ـ 1 ـ 2007.

شيء كإسفنجة عطشة من دون أي غربلة، وبعيداً من أي وعي أو توعية.

ويفيد الاختصاصيون أن التلفزيون لا يمكن أن يكون مصدراً مفيداً للمعلومات عند الأطفال، بل بالعكس يمكن أن يشكل مصدراً خطراً لها، فهو يقدم أفكاراً وصوراً تتسم بالزيف والمغالاة والبعد عن الواقعية، بالإضافة إلى تعميقه النزعة الاستهلاكية.

كما أن ترويج العنف والاغتصاب والقتل والسرقة والتعذيب والانتحار زاد نسبة العدوانية عند الصغار جراء مشاهدة اللقطات العنيفة والقاسية. وأثبت باحثان أميركيان أن معدل الانتحار عند المراهقين ازداد بنسبة 13,5 في المئة في الأيام التي تعقب الإشارة أو الإعلان عن وقوع حالة انتحار في الأخبار أو الأفلام. وهذا ما حصل مع طفل يبلغ العاشرة من عمره في هيوستن، حيث حاول شنق نفسه بعد رؤية عملية إعدام صدام حسين، ويرجح ذووه أنه كان يحاول تقليد المشهد. وقد أحصى المركز الدولي أربعة عوامل يتعلم منها الطفل خلال مشاهدته التلفزيون وهي[1]:

- التشبع: وفيها يكون التقليد والتمثل بطريقة لا إرادية.

- انعدام الحس: الاعتياد على الحوادث بفعل تكرارها فتصبح عادية.

- شاشات مضرة للأطفال تعلمهم الجريمة و«التحاذق» والخمول والكسل والسلبية واعتياد التلقي من دون مشاركة، كما تعلمهم الوحدة ورفض سلوك الجماعة وتشغيل العقل والموهبة.

(1) المرجع السابق.

هذا هو واقع التلفزيون في مجتمعنا، واقع ارتجالي وفردي، حيث يغيب التخطيط وتنعدم الرؤية، مع أهال منشغلين بمتابعة تلفزيون آخر غير عابئين بتأمين الحد الأدنى من المناعة لأولادهم في واقع مرّ يجب التنبه له قبل فوات الأوان.

أسر الخيال

إن إلغاء الحدود بين الكبار والصغار تنقله المثيرات الإلكترونية، فالطفولة عوالم خاصة تتطور كما يبدو للوهلة الأولى بمعزل عن الكبار، أو لنقل بشكل استقلالي، لكنها تحتاج إلى تفاعل متبادل مع عالم الكبار الذي بتنا نمثله نحن، وهذا لا يهم كثيراً الآن، فمملكة العرش التلفزيوني أكبر من حجومنا كلها مجتمعة. التوعية المجتمعية الآن لم تعد قائمة بالتعلم على أيدي المسنين ومن هم أكبر منا. هنا في ظل هذا العقار المرئي المسكن ثمة خرق وقطع للعلاقات، لم يعد النظر إلى الكبار مجدياً، إذ يصبح الاحتكاك بين الكبار والصغار معدوماً لا تقيمه اللغة، وتضيع جاهزيته وتتابعيته، ويصبح صعباً تصيد (البومة الذهبية الضائعة) التي تمثل سر التفاهم بين الكبار والصغار، فالتلفزيون كما يلاحظ برونو بتلهايم «يأسر الخيال لكنه لا يحرره، أما الكتاب الجيد فإنه ينبه الذهن ويحرره في الوقت ذاته»[1].

يصف طفل في العاشرة من عمره تأثيرات المشاهدة التلفزيونية لأعمال درامية مقتبسة من كتب قرأها من قبل بقوله: «إن

(1) فجر يعقوب، جمهورية التلفزيون، كتاب الرافد، إصدارات دائرة الثقافة والإعلام، حكومة الشارقة 2001. (ص58 ـ 60).

الشخصيات التلفزيونية تترك انطباعاً أقوى» الاحتكاك العمومي المقدس دون أي ذنوب بين الكبار والصغار يختفي ويتلاشى تدريجياً لتحل مكانه المياومة التلفزيونية الصاعدة، وهي مياومة تكمن في اتصالية خبيثة تراكم حججاً تعيد أتمتة الواقع الجمالي للطفل بغية صدم عوالمه وتهديم شرعية براءته وألعابه وألفاظه، فلا يعود الكبار هم من يقودون الأطفال نحو الاستكشاف، ولا الأطفال هم من يقودون الكبار نحو بعض التأمل بغية توسيع حدود فتواتهم: «إن قراء المستقبل هم نتاج الأمهات والآباء الذين يقرأون لأطفالهم منذ الطفولة»[1].

في أيامنا هذه يبدو صعباً مراقبة تطور الأطفال، فجدار عدم الفهم المتبادل (يطل) أمام الأهل فجأة، فحتى عصر التلفزيون كان مدخل الأطفال الصغار إلى التخيل الرمزي للواقع محدوداً نتيجة لعجزهم عن القراءة، فهم يدخلون عالم الخيال من مقصورة الحواديت التي تروى أو تقرأ لهم عن طريق الكتاب أو الأدب الشعبي. ما يحدث الآن لهذه الأجيال المبرمجة بإتقان، مريع ومرعب، فالتعلم (يتضمن العويل والصراخ وإلقاء الأشياء والإزعاج)، لأن هذا يجر الأهل أنفسهم إلى الاسترخاء بدورهم والتحول إلى أسرى مسالمين لإحساساتهم الخاصة، فهم مخدرون ويقومون بتخدير أطفالهم بغية الاستراحة من نزقهم طبقاً للديكتاتورية الإلكترونية، لا الأولويات الإنسانية[2].

---

(1) المرجع السابق.

(2) م.ن.

تعداد السلبيات

إنَّ الوقوف على تعداد سلبيات التلفزة لأمر قد يطول ومن بين هذه السلبيات على سبيل المثال ما يلي[1]:

1 ـ قتل مَلكَة الخيال لدى الأطفال.

2 ـ تعريضهم إلى مشاهد العنف حيث يتراوح تأثيرها بين الدعوة اللاواعية للتقليل من اعتبار القتل والعنف في الحياة اليومية أموراً عادية.

3 ـ انغماسهم في لقطات تضرب بكل القيم الثقافية التي تدعو إليها وتتطلبها التربية السليمة عرض الحائط.

4 ـ التفريط في وجبات الأكل والاكتفاء بالقليل الذي يعرض توازنهم الصحي للخلل.

5 ـ عدم الميول إلى الأنشطة الترفيهية الأخرى والتي قد تكون أحسن وأكثر فائدة.

6 ـ تهميش فرص المحادثة مع باقي أفراد الأسرة حول دراستهم وانشغالاتهم اليومية.

7 ـ خلافاً لما يظنه الكثيرون، فإن التلفزة لا تساعد على الاسترخاء والراحة، ولكنها تشحن نفسية الطفل بطاقات قوية يفرغها بطريقة استفزازية.

8 ـ هناك علاقة وطيدة بين تدني مستوى الدراسة والتلفزة، خصوصاً من حيث تأثيرها على القدرة الاستيعابية لدى الأطفال في الفترة الصباحية، وتقول إحدى المعلمات إنها تستطيع التمييز بين

(1) عز الدين الوافي ـ الفنون 1 ـ 8 ـ 2003.

الأطفال الذين يمضون أوقاتهم في مشاهدة التلفزة وأولئك الذين لا يشاهدون التلفاز، ذلك أن التهام الأطفال للبرامج التلفزيونية يؤدي إلى نقص ملحوظ في مهاراتهم الكتابية، إذ تبدو إنتاجاتهم كأنها نسخ مشوهة للإعلانات التجارية فتكون قصيرة ومتقطعة، ولا رابط بين فقراتها ولا تسلسل منطقياً بين أفكارها، وذلك بسبب فعلها المشؤوم في القدرات الإدراكية والحسية للدماغ.

9 ـ تعمل التلفزة على خلق أطفال مدجنين يهربون من كل نشاط يتطلب جهداً عضلياً أو تركيزاً ذهنياً.

جدل حول صحة الطفل[1]

في أوائل العام 2006 أثارت «ورشة سمسم» جدلاً واسعاً عندما أطلقت سلسلة على قرص «دي.في.دي» تحمل عنوان «بدايات سمسم» الموجهة للأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ستة أشهر وسنتين. فقد شن المدافعون عن الصحة العامة هجوماً على شركة الإنتاج التي تقف وراء شخصيتي «بيرت وإيرني»، مؤكدين أنه ما من عرض تلفزيوني يمكن أن يكون مناسباً للأطفال في ذلك العمر.

غير أنه كلما اشتد التحذير الموجه إلى صناعة التلفزيون بشأن مثل هذه المخاطر، تصبح شركات الإنتاج أكثر تصميماً على الرغبة في المضي في المسار ذاته. فقناة ديزني حولت «نادي ميكي ماوس» إلى عرض كارتوني يقصد إعادة تقديم منتج والت ديزني لأطفال ما قبل المدرسة ممن تتراوح أعمارهم بين سنتين وخمس سنوات.

(1) ديف إتيزكوف، نيويورك تايمز (أعيد نشره في الشرق الأوسط 29 ـ 6 ـ 2006).

وأصبحت قناة تحمل اسم «بيبي فيرست تي في» في متناول المشتركين من خلال «دايركت تي في»، أول شبكة فضائية تبث على مدار الساعة تقدم برامج موجهة إلى مشاهدين أطفال تتراوح أعمارهم بين ستة أشهر وثلاث سنوات.

وقبل أن توجه جماعات الدفاع عن الصحة العامة هجومها على «بيبي فيرست تي في»، ربما تعين عليهم أن يقدموا فكرة للمبرمجين البائسين الذين اتهموا بتطوير مثل هذا المحتوى. وقد يكون الأطفال الصغار جيدين في التواصل بشأن ما يريدونه في وجبة طعام معينة، لكنهم ليسوا بتلك الفاعلية عند التعبير عما يريدونه في عرض تلفزيوني. إنهم ببساطة لن يجلسوا بهدوء في مجموعات، والاحتمال الأكبر أنهم يقومون خلال مشاهدتهم البرنامج بمضغ أوراق التحقيق والبحث بدلاً من ملئها بالمعلومات.

ومن الواضح أن مؤسسي «بيبي فيرست تي في» جاءوا مستعدين لتحصين نتاجهم مقابل النقد ذاته الذي واجهه عرض «بدايات سمسم». فقد أصدروا كراسة مرشدة مليئة بإقرار ومصادقة أخصائيي طب الأطفال وعلم النفس والتربية مع إرشادات لأولياء الأمور ليقوموا بدور فعال فيما يشاهده أطفالهم. ويقول المرشد أن التلفزيون يمكن أن «ينور تجربة طفلك عبر فتح عالم من الخيال والصور لا يراها عادة في حياته اليومية».

وإذا ما قيمنا الأمور مقابل المحتوى الفعلي لتلفزيون «بيبي فيرست» فإن بعضاً من البرامج الجيدة تظهر عبر موجات الأثير، ويعتبر «بيبي فيرست تي في» مثالياً في منظوره، حيث هو في أحسن الأحوال مليء بالحيوية والبساطة والدهشة، وفي أسوأ الأحوال لا يسبب أضراراً.

ويتألف البرنامج بكامله من لقطات فيديو قصيرة بالبث الحي وبالرسوم المتحركة. وليست هناك إعلانات تجارية بين المواد القصيرة، ويمكن للمشاهدين المعتادين على رؤية برامج شبيهة أن يلاحظوا في الحال أن السرعة ليست كبيرة عن قصد.

وخلف المَشاهد المتألقة والموسيقى في كل فيديو يوجد عنصر وحيد يوحد هذه المواد القصيرة، وهو رمز «بيبي فيرست. تي. في. إن»، وهو زهرة مبتسمة تتغير ألوان تويجاتها لتشير إلى مهارات الجزء التعلمي منه. فالزهرة الصفراء على سبيل المثال تعني درساً على نماذج التفكير، في حين تعني الحمراء المفردات واللغة، والأرجوانية تعني المهارات الاجتماعية والعاطفية.

وعندما يكرّس «بيبي فيرست تي في» دقائق ثمينة لصور ليست معقدة مثل الحيوانات الغريبة التي تتجول في الغابة أو الأطفال الذين يلعبون بحفرة من الكرات البلاستيكية، فإنه يصبح أكثر قرباً لإنجاز مهمته. وهذه المهمة تتجلى في فتح مزيد من النوافذ لجمهور الصغار على عالم مدهش ومجهول، حيث كل المحفزات الحسية جديدة، وربما تجري تجربتها للمرة الأولى.

أما الموضع الذي يعاني فيه «بيبي فيرست تي في» أكثر، فهو في أذهان المشاهدين الكبار، الذين لا يمكن إلا أن يقارنوا ذلك بذكرياتهم عن «سيسمي ستريت». وربما لا يمتلك «بيبي فيرست تي في» مجموعته الخاصة من الرموز المعترف بها بالنسبة للأطفال، ولكن العجز الأكثر وضوحاً يتمثل في الافتقار إلى التقدم السريع. فليست هناك خيوط تربط أجزاء بالموضوع والفكرة سوياً.

وليست هناك مبررات واضحة لماذا يتعين أن يكون عرض فيديو

قصير عن الأصابع أن يعقبه فيلم كارتون حول الصوت الذي تطلقه البطة، وبعده كارتون آخر حول ما يفعله العلماء. وبدون تحديد جلي لبداية ووسط ونهاية الكتل البرامجية، ليست هناك حاجة ملزمة أن يفتح المرء «بيبي فيرست تي في» في أي وقت محدد من اليوم، ولكن الأكثر إيحاء أنه ليست هناك إشارة واضحة غير أجراس الإنذار في ساعة الكبار، معلناً أنه آن الأوان لإغلاق المحطة.

نقص التلقائية

في هبوط مريع للاستدلال العقلي يرسم كتاب «الأطفال والإدمان التلفزيوني»[1] صورة كدرة للطفل التلفزيوني المشتهى، فما من منجاة من ديكتاتورية جليس الأطفال الملطخ بالذنوب الباهرة. ما من مهرب، وما من مفر أساساً، فالمسدس الإلكتروني يطال هذا المشتهى منذ (شارع سمسم) البرنامج الأمريكي المفضل للآباء في كل الأوقات وحتى إهراءات الحياة فـ(كل طفل يحتاج إلى ساعتين من الهراء يومياً حين يصل إلى البيت من المدرسة حتى يسترخي).

لقد شعر الآباء في ذلك الوقت بأن (شارع سمسم) جاء بنتائج تختلف في الحقيقة عن الأهداف التي نشأ من أجلها، وهو أعد في الأساس كتجربة تربوية إيجابية لأطفال ما قبل سن المدرسة وخيل لهم أنه (ربما يكون عملاً عقلياً يفوق في جدواه أي عمل آخر قد يوفرونه هم). ومع ذلك تبدى بوضوح أن النتائج جاءت مخيبة للآمال. ذلك أن توقع نجاح البرنامج في ردم الهوة بين أطفال الطبقة

(1) قراءة لفجر يعقوب في كتاب الأطفال والإدمان التلفزيوني، عالم المعرفة تموز 1999، تأليف ماري وين ـ ترجمة عبد الفتاح صبحي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت.

الوسطى الذين حصلوا على فرص لفظية وافرة في البيت، وبين أولئك الأطفال المحرومين من فرص كهذه لم يتحقق. الأطفال الفقراء لم يلحقوا بأقرانهم الأكثر تميزاً على الرغم من حرصهم على مشاهدة (شارع سمسم) سنة بعد أخرى. تؤكد الباحثتان دوروثي كوهين وجيرومي سنجر، وهما اختصاصيتان في علم النفس وتديران مركز الأسرة للبحوث التلفزيونية بجامعة (Yale) أن برامج على شاكلة (شارع سمسم لا تترك إلا القليل من الوقت للاستجابة والتأمل) وتؤكدان أن (الشارع يخلق توجهاً سيكولوجياً لدى الطفل يفضي إلى تقليل سعة الانتباه، ونقص التلقائية).

ثقافة أطفال السعودية

الأمر يتخطى الآراء الشخصية والمواقف المسبقة، بل غالباً ما يستند التحليل إلى نتائج علمية، منها ما أظهرته دراسة[1] أجراها المكتب الإقليمي لرابطة الأدب الإسلامي العالمية في الرياض من أن 69 في المئة من ثقافة أطفال المملكة مصدرها التلفزيون قبل المدرسة.

وبينت الدراسة أن «70 في المئة من الرسوم المتحركة تنتج خارجياً وهذا لا يتناسب مع مناهجنا وثوابتنا».

وأشارت إلى أن «للرسوم المتحركة والأفلام المدبلجة تأثيرهما الابلغ على صغارنا، منها زعزعة العقيدة الإسلامية لدى أطفالنا وتشويه صورة المتدينين»، مشيرة إلى أن الملتحي هو دائماً «الشرير السارق الذي يلاحق النساء في هذه الرسوم». وشددت

(1) الحياة 21 ـ 8 ـ 2006.

الدراسة على أن الرسوم المتحركة تنشر «التبرج والمغازلات، والقبلات، ما يوقظ الأحاسيس الجنسية لدى الأطفال».

ورأت الدراسة أن الرسوم المتحركة «فتحت آفاق الجريمة لدى الأطفال»، وبينت الدراسات أن الأطفال يقلدون هذه الجرائم، وقد كُسر الحاجز النفسي بين أطفالنا وبعض الحيوانات، فالخنازير والدببة والكلاب صارت محببة. ليس هذا فقط، فجلوس الأطفال لمدة طويلة أمام التلفزيون يؤدي إلى شيء من البلادة».

المشاهدة المقنّنة

وعليه، أصبحت الأكاديمية الأمريكية لطب الأطفال أكثر حماساً لمنع الأطفال من مشاهدة التلفزيون أو مشاهدته لفترات قصيرة فقط، واستقرت على التوصية أن طفل السنتين فما أقل لا يشاهد التلفزيون البتة، والطفل الأكبر سناً لا يمضي أكثر من ساعة أو ساعتين يومياً أمام شاشات التلفزيون والكمبيوتر واللعب الإلكترونية.

عندما يشاهد الطفل التلفزيون لساعات طويلة يرجعه هذا إلى الفكر السهل المبني على الصورة، وبالتالي إلى عدم حب القراءة وسرعة الملل، وقلة التخيل والتفنن والإبداع (فهي أعمال تحتاج إلى تكوين صورة داخلية)، ويحد من تفكيره المنطقي وتفكيره الاستنتاجي (وهي أفكار مبنية على الكلمة)، ومن ربطه ما يراه على التلفزيون بمعلومات العالم الحقيقي، ويزيد من إمكانية أمراض قلة الانتباه (attention deficit disorders). والطفل الصغير الذي يقضي وقتاً طويلاً أمام التلفزيون لا ينمي المناطق المختلفة من مخه، ولا

يساعد نفسه على أن ينمو اجتماعياً، فيصبح كثير الخجل أو كثير العدوانية والأنانية[1].

وقفت السرعة الرهيبة، التي انتشر بها التلفزيون في جميع أنحاء العالم، حائلاً دون قيام المختصين بتقديم عددٍ كافٍ من الدراسات الموضوعية لمقارنة حال الأفراد ـ وخاصة الأطفال منهم ـ قبل وصول التلفزيون إليهم وبعده، وذلك لمعرفة مدى تأثيره المباشر فيهم، بل لم يكن هناك مجال لتقييم التلفزيون أصلاً.

وعلى الرغم من ذلك، نستطيع أن نجد بعض الدراسات المثيرة، مثل دراسة نوتل التي تناولت تأثير التلفزيون على الأطفال في المجتمعات الكندية قبل وصول التلفزيون إليها وبعده، منذ أكثر من عشرين عاماً.

هناك أيضاً ثروة من المعلومات الناجمة عن أبحاث غير مباشرة حول الموضوع، التي صارت نتائجها الآن معلومة ومؤكدة لدى المتخصصين، حيث ألقت نتائج هذه الأبحاث ضوءاً كاشفاً على مدى التأثير السلبي للتلفزيون في الأطفال.

وقد استُخلصت هذه المعلومات غير المباشرة من الدراسات الديموغرافية التي جرت في الولايات المتحدة الأمريكية بشأن جيل التلفزيون، وهو الجيل الأول من الذين شاهدوا التلفزيون منذ الصغر، واستُخلصت هذه المعلومات كذلك من اللقاءات الصحافية التي جرت مع المدرسين الذين درّسوا لجيلين من الأطفال: جيل لم يكن

(1) عبد المنعم الباز، الفنون 1 ـ 1 ـ 2006 الكويت (قراءة في كتاب «مخاطر التلفزيون على منح الطفل» لسهير الدفراوي المصري).

التلفزيون قد ظهر في حياته بعد، وجيل عاصر التلفزيون وتربى على مشاهدته. ويضاف إلى تلك المصادر الدراسات النفسية العصبية، بالإضافة إلى دراسات أخرى متعددة.

وبما أن زمن أولادنا غير زمننا، فيجب علينا إذن أن نراجع الكثير من أفكارنا وعاداتنا وأساليبنا في تربية أبنائنا، وذلك بانتقاء ما يصلح منها لتأهيلهم لمواجهة زمنهم الجديد، كذلك لا مانع من أن نطلع على الأفكار التربوية وأساليب التنشئة المبنية على أسس علمية، التي أثبتت كفاءتها في مجتمعات أخرى، حتى ننتقي منها ما يناسب أهدافنا في تربية أولادنا[1].

الطلاب وتشفير المحطات

لكن هل هناك علاج سحري، أو وصفة ناجعة، لتغيير هذا الواقع؟

في 2005/9/10 كتبت أمينة خيري في الحياة تحقيقاً عن الطلاب والشاشات وإمكانية تشفيرها، فمع اقتراب بدء السنة الدراسية يبدأ الأهل في مناورات تشفير القنوات الأكثر مشاهدة من قبل الأبناء والبنات، تحسباً لماراثون العام الدراسي الواقع تحت وطأة الامتحانات والدروس الخصوصية والتحصيل والحفظ والتلقين، وهي الأنشطة التي تشتت الفضائيات شملها، وتعرقل سيرها.

ولأن السينما باتت وسيلة ترفيه بالغة الكلفة، وارتيادها صعباً نظراً إلى صعوبة المواصلات وازدحام الطرق، إضافة إلى القيود الاجتماعية المفروضة على تحركات الفتيات مثلاً، أصبحت مشاهدة الفضائيات الوسيلة الرئيسة للترفيه في البيوت التي يتمكن أصحابها

(1) المرجع السابق.

من حشر صحن لاقط إضافي إلى عشرات الصحون المركزة على سطح المنزل.

وعلى رغم عدم وجود إحصاءات عربية شاملة في شأن المشاهد الفضائية، إلا أنَّ انتشار الأطباق اللاقطة يؤكد أن التلفزيون الذي يبث كل ما تشتهيه الأنفس والقلوب يحتل موقعاً مهماً جداً في البلدان العربية، وإذا كانت مشاهدة التلفزيون عموماً في العالم أصبحت منذ الحرب العالمية الثانية النشاط الثالث الذي يقوم به الشخص بعد النوم والعمل، فالوضع لا يختلف في عالمنا العربي.

أستاذة الإعلام في جامعة القاهرة الدكتورة ليلي عبد المجيد[1] قالت في دراسة أجرتها عن العلاقة بين الأطفال العرب (12 ـ 18 سنة) والتلفزيون أن 98,5 في المئة من أفراد العينة يشاهدون التلفزيون، وزادت نسبة الفتيات قليلاً على الذكور. وفي عطلة الصيف التي توشك على الانتهاء نجحت الفضائيات العربية في جذب المشاهدين الشباب الذين أعيتهم المتاعب المالية المقيدة لسبل الترفيه الأخرى، فلجأوا إلى الترفيه الفضائي الخفيض الكلفة، والمتمثل في قنوات الأفلام، والفيديو كليب، إضافة إلى برامج تلفزيون الواقع. والملاحظ أن الصحن اللاقط يترأس الغالبية العظمى من أسطح البيوت القاهرية بمختلف مستوياتها الاجتماعية والاقتصادية، بل إن عدداً من مقابر منطقة الغفير الشاسعة التي يقطنها أحياء ظهرت عليها بوادر الصحون اللاقطة، واختفى تماماً الجدل الذي كان يجري قبل سنوات قليلة وقوامه: «هل نشتري صحناً لاقطاً أم لا»، واستبدل السؤال بـ«أي باقة نشترك فيها؟».

(1) أمينة خيري، الحياة، 10 ـ 9 ـ 2005.

أما الآباء والأمهات، فسلم الكثيرون منهم بأن مسألة التحكم فيما يشاهده ولا يشاهده الأبناء أمر غير وارد وغير واقعي، فإذا كانت القنوات التي تعرض ما يصفونه بـ«المواد الإباحية» سهلة التشفير، فأنَّ القنوات الغنائية متاحة للجميع في كل مكان، بكل ما تحويه من مشاهد يعتبرها بعضهم غير لائقة بالنسبة إلى الأطفال أو المراهقين.

من جهة أخرى أثبتت الفضائيات العربية قدرة فائقة في القضاء على الجانب الأكبر من تذمر الطلاب من الملل أثناء العطلة الصيفية الطويلة، فهي أرضَتْ جميع الأذواق: أفلام عربية قديمة، أفلام أجنبية حديثة، تلفزيون الواقع، فيديو كليب، برامج فنية هابطة، أغاني طرب، مباريات كرة قدم ومصارعة حرة، حوارات عن المعارضة والحكومة، أفلام كارتون، وجميعها عوالم افتراضية تشبع جانباً من أحلام مشاهديها الصغار، ولو إلى حين القدرة على تحقيقها أو تخزينها لأجل غير مسمى.

التلفزيون في غرفة النوم

من هنا المشاكل الأخرى، نذكر ظاهرة الحرية في المشاهدة، والاستقلالية في اتخاذ القرار وهو ما يدفع البعض لأن يضع جهازاً في غرفة النوم لحرية أكبر في اختيار برامجهم المفضلة، أو فقط للاسترخاء على سرير مريح بدل أريكة غرفة الجلوس، ومن ثم النوم من دون تكبد عناء إطفاء الجهاز. وبين هذه الحالة أو تلك، قصص وروايات وعادات لعلم النفس موقف منها.

علمياً تميل كفة السلبية على تلك الإيجابية بالنسبة لوجود جهاز تلفزيون في غرفة النوم، إذ يؤكد الأخصائي في الإرشاد الزوجي والتوجيه العائلي الدكتور رائد محسن أنه «من غير المستحب وجود

التلفزيون في غرفة النوم لمن هم دون الرابعة عشرة من العمر»[1].

وعزا الأسباب إلى أن الرسوم المتحركة على سبيل المثال، تشكل «إزعاجاً في رأس الأطفال، من دون أن يشعروا به، فيكثرون من التذمر». وشدد محسن على ضرورة أن تتم المشاهدة تحت إشراف الأهل حتى لو بطريقة غير مباشرة. ولم يعترض على فكرة أن يتمتع من بلغ الرابعة عشرة من العمر بحقه في الحصول على الجهاز في غرفته، لأن من بلغ هذا العمر سيتابع ما يريد متابعته سواء في منزله أو خارجه.

(1) زينة برجاوي، السفير 14 ـ 9 ـ 2006.

رسائل
الإعلانات الموجهة

الإعلان الموجّه للطفل

تشترط الكثير من الدول الغربية على القنوات الموجهة للأطفال الامتناع عن تقديم أي مادة إعلانية، فمن السهولة خداع عقل الطفل وإقناعه بمنتجات قد لا تكون لصالحه غذائياً أو ثقافياً أو حتى مادياً واجتماعياً.

لكن في المقابل هناك الكثير من هذه المحطات وتحديداً في العالم العربي تعمد دون أي رقيب أو حسيب على إدخال الطفل في منظومة متكاملة من الاستغلال التجاري فالرسوم المتحركة التي يشاهدها تتحول إلى إعلان لأبطالها يمكن شراء رسومهم مع كيس البطاطا أو مع العلكة، والبطلة الجميلة هي ماركة منتشرة على كل ما يمكن أن يحتوي على صورة كالثياب والمحفظة المدرسية والدفاتر والأقلام عداك عن الألعاب التي تمثلها.

لكن الإعلان الموجّه للأطفال خرج عن كلاسيكيته مع بعض الشركات التي قدمته على شبكة الإنترنت كما على جدران المدارس وأحياناً ضمن اتصال مباشر مع الأطفال ضمن قالب إحصائي.

اقترحت لجنة وطنية في إحدى الدول بمناسبة العام الدولي للطفل فرض حظر على جميع إعلانات التلفزيون قبل الساعة الثامنة مساء وذلك لحماية الأطفال من أن يصبحوا (ضحايا المجتمع الاستهلاكي). وقال أحد علماء الطب النفسي للأطفال أن الأطفال

الصغار قد يصبحون متشككين في والديهم ومدرسيهم أو أي شخصيات أخرى تنتقص من أهمية منتجات غذائية مسكرة أو لعبة أطفال سيئة الصنع يجري الإعلان عنها بدهاء، وأضاف إن الشعور بعدم الثقة ينشأ عندما تصمت شخصيات لها سلطة شرعية، مثل الأبوين أو تفقد حجيتها، إذا ما استخدمت أساليبها الضعيفة للإقناع في واجهة قوة الإعلان التلفزيوني لدى الأطفال الصغار.

والإعلان يمكن أن يؤثر في عملية التنشئة الاجتماعية. فمثلاً، إحدى الدراسات عرضت على الأطفال ثلاثة إعلانات مختلفة عن النظارات وفيها امرأة تقدم الدليل، أحد هذه الإعلانات أظهر المرأة وهي ترتدي لباس قاضي المحكمة، والآخر أظهرها كمبرمجة كمبيوتر والثالث أظهرها كفنية في التلفزيون، الأطفال الذين شاهدوا تلك المرأة في دور معين كانوا أكثر ميلاً لاختيار تلك المهنة على أنها مناسبة للمرأة.

وقد كشفت دراسة مصرية أنَّ 99٪ من أطفال مصر يتأثرون بالإعلانات، وأن 36٪ من حجم إعلانات التلفزيون موجهة للأطفال. وأن 36٪ من الإعلانات تستخدم الأطفال كموديل للإعلان عن المنتج. وأشارت الدراسة التي أجرتها كلية الإعلام بجامعة القاهرة إلى أنه تم عرض 3460 ثانية إعلانية للأطفال خلال شهرين وأن 27٪ منها استخدام المرأة في دعايتها[1].

دراسة ثانية قالت أنه يوجد واحد بين كل ستة شبان ممن تتراوح أعمارهم بين 15 و16 شاهد بنفسه أو علم بأن شخصاً ما قد أطلق عليه الرصاص. ولقد ارتفع عدد الأطفال المعتدى عليهم جنسياً

(1) الرأي العام 24 ـ 10 ـ 1997.

بنسبة 40٪ في الفترة ما بين 85 ـ 1991. الأطفال ما دون الثامنة عشرة أصبحوا أكثر قابلية بنسبة 244٪ للقتل بالرصاص في 1993 مقارنة مع 1996. ارتفعت جرائم العنف عموماً بأكثر من 560٪ عما كان عليه الأمر عام 60. جهاز التلفزيون أصبح أداة فاعلة في تغذية الشعور بالعنف لدى الأطفال. فقد اتضح أن الطفل يشاهد ما مقداره 8 آلاف جريمة و10 آلاف حادث عنف قبل أن يكمل مرحلته الأولية. ويتضاعف هذا الرقم عندما يصل إلى سن الثامنة عشرة[1].

غزو المدارس إعلانياً

هذا وقد تمددت الإعلانات وتوسّعت، حتى بلغت المدارس، وعن هذه النقطة يقول المخرج مايكل مور[2]: بعد أن قرر أعضاء الوحدة المدرسية المستقلة غرايبفاين كوليفيل في تكساس بأنهم لا يريدون إعلانات تجارية في الصفوف، سمحوا برسم شعارات شركتي الدكتور بيبر وسفن آب على أسقف اثنين من مدارسها الثانوية. تقع هاتان المدرستان، ليست مصادفة، تحت طريق الرحلات الجوية لمطار دالاس.

ولا تبحث الشركات عن وسائل للإعلان فقط، فهي مهتمة أيضاً بالمفاهيم التي يحملها الطلاب عن المنتجات المتنوعة. وهذا هو السبب الذي يدعو الشركات، في بعض المدارس، لإجراء أبحاث تسويقية في الصفوف خلال ساعات المدرسة. تذكر مؤسسة المصادر التسويقية التعليمية في كنساس «بأن الأولاد يجيبون بصراحة وسهولة على الأسئلة والمنبهات» في حالة الصف. (بالطبع،

(1) زينة برجاوي، السفير، 14 ـ 9 ـ 2006.
(2) الشرق الأوسط 26 ـ 2 ـ 1997.

هذا ما يُفترض عليهم فعله في الصف ـ ولكن لما يفيدهم هم وليس لمنفعة بعض المستطلعين الشركاتيين). على كل حال، إن إجراء تحقيقات عن التسويق بدلاً من التعليم ليس هو ما ينبغي عليهم القيام به.

يضيف مور: كما تعلمت الشركات أيضاً أن بإمكانها الوصول إلى هذا الجمهور الضيق عن طريق «رعاية» المقررات التعليمية، التي ازدادت، كالوسائل الأخرى، بنسبة هائلة بلغت 1,875 بالمائة منذ التسعينيات[1].

لقد عرض المعلمون شريط فيديو عن شركة النفط شل أويل يعلم الطلاب بأن الطريقة المثلى لاختبار الطبيعة تتمثل بالذهاب إلى هناك ـ بعد ملء خزان سيارتك الجيب من محطة وقود شركة شل. وأعدَّت شركة إكسون موبايل برامج تدريسية عن الحياة الطبيعية المزدهرة في خليج برينس ويليام ساوند، موقع الكارثة البيئية التي تسبب بها تدفق النفط من ناقلة النفط إيكسون فالديز. إضافة إلى كراس ترعاه شركة هيرشي للشوكولاتة استُخدم في العديد من المدارس يعرض «ماكينة شوكولاته الأحلام»، ويتضمن دروساً في الرياضيات، والعلوم، والجغرافيا ـ والتغذية.

يُزوَّد مقرر الاقتصاد في عدد من المدارس الثانوية من قبل شركة جنرال موتورز، التي تكتب وتؤمن الكتب المدرسية ومخطط المقرر. يتعلم الطلاب من نموذج جنرال موتورز فوائد الرأسمالية وكيف تدير شركة ـ مثل GM.

وأي طريقة أفضل لغرس شعار شركة ما في أذهان أطفال الأمة

(1) مايكل مور، رجال بيض أغبياء، الدار العربية للعلوم، بيروت ص (143 ـ 145).

من التلفزيون والإنترنت الموجهين مباشرة إلى داخل الصف. ارتفع التسويق الإلكتروني 139 بالمائة، وفيه تقدم الشركة البرامج أو المعدات للمدرسة مقابل حقها في توجيه إعلاناتها إلى الطلاب.

أحد الأمثلة هي شركة زاب مي، التي تقدم إلى الطلاب مخبر كمبيوتر مجاني وحق الدخول إلى مواقع مختارة سلفاً على الإنترنت. ومقابل ذلك، على المدرسة أن تعد باستخدام المختبر على الأقل أربع ساعات في اليوم. وما الهدف من ذلك؟ يحتوي مستعرض الوب لموقع زاب مي إعلانات مجدولة دائمة ـ وبذلك تجمع الشركة معلومات عن عادات الطلاب في الاستعراض (التصفح)، معلومات يمكنها بيعها بعد ذلك إلى الشركات الأخرى.

وربما يكون تلفزيون القناة الأولى هو الأسوأ من بين المسوقين إلكترونياً.

يشاهد ثمانية ملايين تلميذ في 12,000 صف دراسي القناة الأولى، برنامج من الأخبار والإعلانات داخل المدرسة، يومياً. (هذا صحيح: يومياً). يقضي التلاميذ الآن ما يعادل ستة أيام دراسية كاملة في العام بمشاهدة القناة الأولى في حوالي 40 بالمائة من المدارس الأميركية المتوسطة والثانوية. وما مقدار الوقت التدريسي الضائع لصالح الإعلانات لوحدها؟ يوم كامل في السنة. وهذا يتحول إلى كلفة سنوية تقع على عاتق دافعي الضرائب مقدارها 1,8 مليار دولار.

بالتأكيد يتفق الأطباء والمثقفون على أن أطفالنا لا يتمكنون أبداً من مشاهدة التلفزيون بالقدر الكافي. وربما هناك متسع من الوقت في المدرسة لبعض البرامج التلفزيونية ـ لدي ذكريات أثيرة عن

عرض انطلاق رواد الفضاء على التلفزيون في قاعة الاستماع في مدرستي. ولكن من الاثنتي عشرة دقيقة التي تبثها القناة الأولى يومياً، 20 بالمائة فقط من البث المباشر مخصص لقصص عن السياسة والاقتصاد، والقضايا الثقافية والاجتماعية. وذلك يترك 80 بالمائة للإعلانات، والرياضة، والطقس، والأفلام، والأمور الترويجية الخاصة بالقناة الأولى.

تُشاهَد القناة الأولى بشكل غير متكافىء في مدارس المجتمعات ذات الدخل القليل التي تحوي أعداداً كبيرة من الأقليات، حيث يرصد أقل الأموال للتعليم، وحيث ينفق أقل المبالغ على الكتب المدرسية والمواد التعليمية. وطالما تتلقى هذه الوحدات المدرسية حسنات من الشركات، فسيبقى إخفاق الحكومة في تأمين الاعتمادات المالية المدرسية المناسبة بدون أي انتقاد[1].

تأثير الإعلانات على صحة الأطفال[2]

يلعب التلفزيون دوراً كبيراً كوسيلة من وسائل الإعلام المختلفة لما يترك من تأثيرات عميقة على شخصية ونفسية المشاهد وبذلك يكون أكثر الوسائل تأثيراً في الأفراد. وتزداد خطورته كوسيلة إعلامية عندما تتوجه برامجه إلى الأطفال.

والإعلانات في التلفزيون تتسم بعوامل الجذب والانتباه وتسيطر على عقول المشاهدين كباراً كانوا أم صغاراً. وقد أثبتت الأبحاث الإعلامية أثر الإعلان التجاري على الأطفال من النواحي المعرفية

(1) المرجع السابق.

(2) خالد علي المدني، الرياض 19 ـ 10 ـ 2005.

والسلوكية والعاطفية مما يلقي بأعباء نفسية واقتصادية على الأسرة بأكملها.

وحول الجانب الغذائي وصحة الطفل يعد تأثير الإعلانات التلفزيونية من أهم الأجهزة المؤثرة على الطفل، ويكاد يكون المصدر الأول للمعلومات بالنسبة له، حيث يركز على الوصول إلى عقل الطفل وامتلاك حواسه وتوجيه رغباته إلى نوعية معينة من الأطعمة. وعن طريق إبراز السلعة بشكل جذاب واستعمال الكلمة السهلة واللحن الجذاب مع التكرار ومحاولة الإيحاء بطرق تعبيرية مختلفة. وبوعود خيالية أحياناً عن قدرة المنتج الغذائي العجيبة. مثل إكساب الطفل القوة العضلية، أو البراعة في قدرات معينة. كما أن للتلفزيون تأثيراً على نمو وصحة الطفل وسلوكه الغذائي عندما يكون وسيلة إغراء للطفل لشراء الأطعمة ذات السعرات الحرارية العالية والقيمة الغذائية القليلة مما يؤدي إلى نقص في بعض العناصر الغذائية الهامة مثل بعض المعادن والفيتامينات المتوفرة في الخضروات والفاكهة والتي نادراً جداً ما يعلن عنها التلفزيون. في حين يتطلب النمو السريع والتمثيل الغذائي العالي للأطفال نسبة أعلى من عناصر النمو والطاقة الغذائية بالنسبة إلى جسمه.

بالإضافة إلى أن تناول الحلويات والمشروبات ذات المحتوى العالي من السكر بدون تنظيف الفم والأسنان بعد تناولها يؤدي إلى تسوس الأسنان. كما أن تناول الحلويات قبل الأكل يؤدي إلى فقدان شهية الطفل للغذاء المتكامل والمتوازن، كما أن جلوس الأطفال أمام التلفزيون لفترة طويلة يؤدي إلى قلة الحركة والنشاط وبالتالي ظهور البدانة لديهم وما يترتب عليها من مشاكل صحية ونفسية واجتماعية.

وتبقى الإعلانات التلفزيونية أخطر ما يوجه من هذا الجهاز السحري وأكثرها تاثيراً على أطفالنا في سلوكياتهم وغذائهم. بل ونموهم وخصوصاً عندما نشاهد اختيار عرض هذه الإعلانات التي تتناسب مع وقت تواجدهم أمام التلفزيون. مثال صباح نهاية الأسبوع أو يومياً بعد العصر. ولذلك يجب أن يخضع الإعلان للرقابة الصحية بكل مشتملاتها الجسمية والنفسية والاجتماعية

حماية الأطفال من إعلانات الأطعمة غير الصحية

يبحث وزراء الصحة في الاتحاد الأوروبي وثيقة أعدتها منظمة الصحة العالمية تهدف للحد من السمنة، وتنص على ضرورة حماية الأطفال مما وصفته «باستغلال شركات الأغذية».

ويدعو مشروع الوثيقة إلى تخفيف الضغوط الإعلانية لشراء الأغذية غير الصحية. ويعرض مجموعة توصيات من الدعوة إلى تناول الأغذية الصحية إلى فرض حظر كامل على الإعلانات عن الأطعمة غير الصحية قبل الساعة 9 مساء، وهو الموعد الذي يتم بعده تخفيف القيود على البرامج التلفزيونية عموماً باعتبار أن كثيراً من الأطفال يخلدون للنوم عنده. ويقول مشروع الوثيقة أنه يجب توجيه أهمية خاصة للمجموعات الهشة في المجتمع، مثل الأطفال والمراهقين، التي يجب ألا يتم استغلالها من قبل الأنشطة التجارية. ويدعو إلى الحد من الإعلانات التجارية للأطعمة غير الصحية، خاصة التي تستهدف الأطفال. وتختلف الدول الأوروبية في مواقفها من هذه الإعلانات. فتفرض دول أوروبية مثل النروج والسويد حظراً قانونياً على هذه الإعلانات، بينما تضع دول أخرى سياسات عامة يجب اتباعها في هذا المجال مثل فنلندا وإيرلندا، وهناك دول تعتمد

على الرقابة الذاتية للمؤسسات الإعلامية مثل هولندا واسبانيا والبرتغال.

واتبعت فرنسا سياسة أخرى، إذ تشترط على كل الإعلانات عن الأطعمة المجهزة أو المنتجات التي تحتوي على دهون أو محليات إضافية أن تحتوي على تحذير صحي من مخاطر مثل هذه الأطعمة، وألا يكون على المعلنين تخصيص تمويل للناشطين في مجال الأغذية الصحية. وتعاني بريطانيا من أعلى معدل لسمنة الأطفال في أوروبا. وينتظر أن يصل عدد الأطفال الذين يعانون من السمنة المرضية في بريطانيا إلى مليون طفل بحلول العام 2010. وأكدت كاثي مولتون من جمعية أمراض السكري في بريطانيا على ضرورة مواجهة مشكلة سمنة الأطفال قبل أن تواجه بريطانيا احتمال قيام احتجاجات من عشرات الآلاف من الأطفال الذين يعانون من مرض السكري. وقالت إنه يجب ألا نخاطر بصحة الأطفال من أجل أرباح الإعلانات[1].

استضافت مدينة سيدني الأسترالية في أواخر العام 2006 أعمال «المؤتمر العالمي العاشر حول البدانة»، الذي يعقد مرة كل أربع سنوات كان آخرها في مدينة «ساو باولو» في البرازيل عام 2002. وشارك في المؤتمر الأسترالي قرابة ألفي مندوب من مختلف دول العالم. ورفع المؤتمر شعار «نحو مراجعة نقدية شاملة للسياسات الغذائية الغربية».

ومن الاقتراحات التي ألحَّ خبراء المؤتمر على ضرورة متابعتها: تشدد الحكومات في مراقبة الإعلانات التلفزيونية التي «تقصف»

(1) بي بي سي العربية، أعيد نشره في السفير 4 ـ 11 ـ 2006.

الأطفال بمعدل يتراوح بين 20 و50 ساعة أسبوعياً وتستغل سذاجتهم وتعمد إلى اجتذابهم بشتى الإغراءات الدعائية؛ وفرض تدابير صارمة على مصانع أغذية الأطفال وتحذيرها من التلاعب بكميات السكر والزيوت المسموح بها طبياً ومضاعفة الغرامات بحق المخالفين وأحالتهم على القضاء[1].

لا لإطعام الأطفال أمام التلفزيون

في الإطار عينه، إنما من زاوية أخرى ذكرت دراسة أميركية أن مشاهدة التلفزيون تعطل استجابة الأطفال الطبيعية للغذاء فيتناولون المزيد وهم يجلسون أمامه سواء شعروا بالجوع أو لا. وأكدت ضرورة خفض ساعات مشاهدة التلفزيون والحد من تناول الطعام خلا المشاهدة كجزء من أسلوب الحياة الصحي.

وبحثت الدكتورة جنيفر إل تيمبل وزملاؤها من جامعة بوفالو بنيويورك تأثير التلفزيون على «التعود على منبهات غذائية». في تجربة أولى فحص الباحثون 30 طفلاً أوزانهم طبيعية تتراوح أعمارهم بين التاسعة والثانية عشرة وقاموا بأداء اختبار على الكومبيوتر لتسجيل درجات على تناول الطعام. ويتكون الاختبار من عشر خطوات تستغرق كل منها دقيقتين. وفي الخطوات السبع الأولى عمل الأطفال لتسجيل نقاط من خلال تناول نصف شطيرة برغر صغيرة بالجبن. وفي الخطوات الثلاث الأخيرة تناول بعض الأطفال قطعاً من البرغر بالجبن وتناول البعض الآخر البطاطا المقلية وتناولت المجموعة الثالثة البرغر بالجبن خلال مشاهدة التلفزيون.

(1) الحياة 31 ـ 11 ـ 2006.

ووجد الباحثون إنَّه بينما فقد الأطفال الذين لم يشاهدوا التلفزيون، وقدمت لهم شطائر البرغر بالجبن بصورة متواصلة كجوائز، الاهتمام بالطعام فقد بدأ الأطفال الذين قدمت لهم البطاطا المقلية والذين كانوا يشاهدون التلفزيون في الأكل مرة أخرى. وقضت مجموعة التلفزيون ومجموعة البطاطا المقلية وقتاً أطول في استيفاء اختبار الكومبيوتر واستهلكوا سعرات حرارية أكبر من المجموعة الثانية الذين قدمت لهم نفس نوعية الطعام من دون تشتيت انتباههم من خلال مشاهدة التلفزيون.

وفي التجربة الثانية قدم الباحثون للأطفال وجبة صغيرة من 1000 سعرة حرارية وأبلغوهم أن بمقدورهم تناول ما يريدون. وشاهد بعض الأطفال برنامجاً تلفزيونياً من 23 دقيقة بينما شاهد آخرون مقطعاً من دقيقة ونصف من برنامج معاد ولم يشاهد الباقون التلفزيون. ووجد الباحثون أن الأطفال الذين شاهدوا البرنامج التلفزيوني استهلكوا أكثر من 500 سعرة حرارية وقضوا وقتاً أطول في تناول الطعام (21 دقيقة) من المجموعة التي شاهدت المقطع المكرر وتلك التي لم تشاهد التلفزيون مجتمعتين[1].

إعلانات وأرقام

تشير الدراسات إلى أن الطفل العربي يقضي حوالي 28 ساعة أسبوعياً أمام التلفزيون (في سن 2 ـ 5) و24,3 ساعة أسبوعياً (في سن 6 ـ 11) وأن الطفل يستبقي ما يقرب من 70٪ مما يشاهده في

(1) السفير 24 ـ 2 ـ 2007 (عن وكالة رويترز).

ذاكرته من مواد وتمتد تلك الذكريات حية في عقله إلى حوالي 4 أشهر[1].

يتعرض الطفل الخليجي سنوياً لـ15 ألف إعلان تلفزيوني، منها أكثر من 6 آلاف إعلان عن الأطعمة المعلبة[2].

60٪ من أسباب البدانة لدى الأطفال ناجمة عن الإفراط في مشاهدة التلفزيون، وأكد فريق من الباحثين في جامعة (هارفارد) أن الأطفال الذين يشاهدون التلفزيون أكثر من 5 ساعات يومياً معرضون للبدانة بنسبة (3 ـ 5) مرات أكثر من الذين يمضون أقل من ساعتين أمام التلفزيون[3].

دراسة أمريكية في سان دييجو أشارت إلى أن الطفل يشاهد في ساعة واحدة من برامج الأطفال ما معدله 12 دعاية نصفها يروج لمأكولات مختلفة، وما يقلق الأطباء أن 91٪ من المأكولات المعلن عنها هي غنية بالدسم والسكر والملح. واستنتجت الدراسة أن الدعايات تربط المنتجات الغذائية المعلن عنها بالسعادة والمرح أكثر من ارتباطها بالطعم والمحتوى الغذائي أو أية ميزات أخرى في المنتوج نفسه[4].

دراسة سعودية أكدت وجود الجوانب السلبية التي يتعرض لها الطفل الخليجي من جراء مشاهدته لنحو 15 ألف إعلان تجاري سنوياً في القنوات الفضائية بينها 6600 إعلان عن الأطعمة والمواد

---

(1) مجلة تلفزيون الخليج 1 ـ 6 ـ 1999.
(2) الشرق الأوسط 6 ـ 1 ـ 1997.
(3) القبس 15 ـ 4 ـ 1996.
(4) مجلة ستلايت غايد 10 ـ 5 ـ 1997.

الغذائية والمعلبات فقط. وأن أولياء الأمور عاجزون عن التصدى لأبنائهم ومنعهم من مشاهدة الإعلانات وهم يدفعون الثمن باهظاً جراء فواتير علاج أبنائهم نظراً لإرغام الأطفال لوالديهم على شراء الأطعمة والمعلبات التي يشاهدونها في التلفزيون. ومعظم هذه المعلبات والأطعمة غير صحية وغير ملائمة. وأضافت الدراسة أن الإعلانات أصبحت تتحكم في سلوك الطفل الغذائي والاجتماعي، كما تؤثر في لغته ولهجته المحلية. وأثبتت الدراسة أن أكثر من 92٪ من الأطفال يحاكون ويقلدون أصوات وحركات الممثلين الذين يقدمون هذه الإعلانات[1].

دراسة لإعلاميّة ألمانية حذرت من زيادة استهلاك الأطفال للتلفزيون. وقدرت الدراسة حجم إنفاق الشباب من 13 و14 بما لا يقل عن حوالي 10 مليارات دولار أمريكي. وأن متوسط مشاهدة الشباب من 12 فما فوق يصل إلى 186 دقيقة[2].

دراسة أمريكية في جامعة بوسطن وشملت 412 طفلاً توصلت إلى أن 60٪ منهم تعرضوا للسمنة نتيجة لإفراطهم في مشاهدة التلفزيون[3].

دراسة ألمانية حذرت من اضطرابات صحية تتعلق بمشاهدة التلفزيون. حيث يقضي الطفل الألماني 5 آلاف ساعة أمام التلفزيون قبل دخوله إلى المدرسة ويكون قد شاهد حوالي 19 ألف ساعة حينما يبلغ الرابعة عشرة من العمر في حين أنه لم يتلق إلا 14 ألف

(1) الشرق الأوسط 26 ـ 2 ـ 1997.
(2) الشرق الأوسط 26 ـ 5 ـ 1997.
(3) الشرق الأوسط 13 ـ 12 ـ 1997.

حصة دراسية. ويكون الشاب البالغ 20 عاماً قد شاهد 600 ألف إعلان.

وتبلغ نسبة البدانة بين الأطفال الذين يشاهدون التلفزيون ساعتين يومياً فقط حوالي 12٪ وترتفع النسبة إلى 30٪ بين الأطفال الذين يشاهدون التلفزيون بمعدل 4 ـ 5 ساعات يومياً. وقالت الدراسة إنَّ التلميذ الألماني يشاهد 101 دقيقة يومياً كمعدل في حين يخصص 21 دقيقة يومياً كمعدل لدراسته. وتسبب هذا الوضع بإصابة ربع التلاميذ الألمان بأحد أنواع «اضطراب الكلام». والسبب واضح لأن الطفل الألماني صار يتلقى ويشاهد أكثر مما يقول أو يسمع[1].

الصغار في الولايات المتحدة أصبحوا الهدف الأول لشركات الإعلان وقوتهم الشرائية توازي 14 بليون دولار وحسهم النقدي تجاه الإعلان أضعف منه عند الراشدين. 45٪ من الأطفال جهزت غرفهم بجهاز تلفزيون وحوالي 80٪ منهم يعترف بأن من هواياته المفضلة الأكل خلال مشاهدة ما يدور على الشاشة الصغيرة. 600٪ من الإعلانات مخصص للمأكولات التي معظمها (90٪) منها مضر على الصعيد الصحي (شوكولاتة، حلوى، أطباق مبردة، بطاطا مقلية) وعلى سبيل المثال فيلم (هوم ألون) يظهر 21 نوعاً من المأكولات التي تغري الصغار. وساعات التلفزيون تحتل المرتبة الثانية في حياة الطفل بعد ساعات النوم. فهو يستهلك 40 ألف فيلم إعلاني سنوياً، ويصل المجموع حتى انتهاء مرحلة الدراسة إلى حوالي نصف مليون فيلم[2].

---

(1) الشرق الأوسط 19 ـ 11 ـ 1997.

(2) الحياة 1 ـ 10 ـ 1995.

الدعاية السياسية الموجهة للطفل

إنَّ علم الدعاية الحديث مع ما فيه من فنون الإقناع مهيىء أصلاً ليكون موجهاً نحو عقول الراشدين وفي أغلب الأوقات يحقق علم الدعاية غايته، فكيف بالحرب حين تكون الرسالة الدعائية موجهة نحو دماغ الطفل حيث التجربة قليلة والمقدرة التمييز ضعيفة إضافة إلى تمتع الأطفال بنقاط ضعف كثيرة ترتبط بالشكل واللون والأسلوب.

هنا لا نقصد فقط الجانب السيء من الدعاية بل هناك أشكال كثيرة من الدعاية البيضاء التي تحمل رسائل إيجابية عامة. مستمدة من الأعراف والقوانين الإنسانية المتفق عليها عالمياً، لكن في كل الأحوال يبقى دماغ الطفل أشبه بوعاء مهيىء لاستقبال أيّ وافد صالحاً كان أم طالح.

يعتبر الكارتون أو الرسوم المتحركة من أكثر الأشكال جذباً لمخيلة الطفل، وعبر شاشة التلفزيون يمكن تحقيق أهداف المرسل دون كثير عناء إن كان بشكل مباشرة أو غير مباشر.

بالإضافة لأفلام ديزني التي قدّمت صورة العربي والمسلم بأسلوب وشكل عنصري نمطي وبالإضافة لدور بعض الألعاب والدمى مثل باربي في نقل وترويج الحياة الغربية وتحديداً في جانبها السيء، ثمة استغلال أكثر مباشرة لرموز لها وقعها وشهرتها في عالم الأطفال كسوبرمان الذي قدم في الماضي كبطل يحارب هتلر وباتمان الذي يُحضَّر لمنازلة بن لادن...

الكرتون بمواجهة بن لادن

لم يتمكنوا من إلقاء القبض عليه بعد سنوات من البحث، فقرروا

إدخاله في أفلام الكرتون ليجعلوا منه مثال «سخرية»، وربما ليضحكوا على خيبة قواتهم في العثور عليه.

يبدو أن هذه هي حال الأمريكيين مع زعيم تنظيم «القاعدة» أسامة بن لادن، الذي توقف ظهوره عبر أشرطة الفيديو التي تبثها الفضائيات، ليظهر في شريط فيديو بثّته شبكة «كيل سوم تام» ومدته أقل من خمس دقائق.

لم يكن هو، طبعاً، في هذا الشريط بل شخصية كرتونية متحركة، ابتدعها رسام القناة، الذي صور بن لادن في أحد كهوف جبال أفغانستان، يقوم بتسجيل مقطع فيديو، موجهاً خطابه لأمريكا، مهدداً بالحرب «المقدسة»، رداً على ضرب أمريكا لـ«القاعدة».

في الشريط يقف «الزعيم»، ووراءه خلفية من «الخيش» يلقي خطابه بأسلوب صارم، إلا أنه يخطىء في نطق شهر رمضان. فيقول «رضمان» ما يجعل رفاقه من أعضاء «القاعدة» ينفجرون ضاحكين على زعيمهم، الذي يأمرهم بتجنب النظر إليه، وإدارة وجوههم إلى جدار الكهف ليستأنف خطابه من دون ضحك، ويواصل سخريته ممسكاً دجاجة مذبوحة، وهو يرتدي نظارة شمسية، ليستمر رفاقه في نوبة ضحك هستيرية.

هنا نلاحظ أنَّ التورية قد غابت كليّاً، لتقدَّم مادة سياسية دعائية مباشرة تستهدف الكبير والصغير في آن.

وباتمان يحارب (القاعدة)

لكن القصة لم تنته هنا، إذ يبدو أن المقاتل الكرتوني باتمان الذي نذر نفسه لمحاربة الأشرار سينضم إلى الحرب على الإرهاب، ويختار أعداءه من تنظيم (القاعدة) إذ نشرت صحيفة «غارديان»

البريطانية مقتطفات من كلام أدلى به فرانك ميلر مؤلف قصص باتمان المصورة خلال ندوة أقيمت في إطار معرض للكتب في سان فرانسيسكو في الولايات المتحدة، وقال إن باتمان يحارب الأشرار وهم عادة أشخاص متخيَّلون، فلماذا اللجوء إلى الخيال وفي العالم أشرار حقيقيون.

ولفت إلى أن «سوبرمان» واجه في القصص المكتوبة عنه الديكتاتور النازي هتلر.

تجدر الإشارة إلى أن ميلر قدم مجموعة ناجحة من قصص باتمان المصورة منذ الثمانينات من القرن الماضي، وكتب حتى الآن نحو 120 صفحة في المجموعة الأخيرة التي ستتألف من 200 صفحة.

القاعدة ترد

في المقابل وزّع أصوليون على مواقع في الإنترنت قريبة إلى تنظيم «القاعدة» أول فيلم كارتون للأطفال يظهر مشاهد من عمليات تستهدف قوات أميركية في العراق.

ولقي الفيلم الكارتوني الذي لا تتجاوز مدته خمس دقائق، صدى كبيراً لدى ناشطين أصوليين على الإنترنت أثنوا على هذه المبادرة ودعوا إلى دعمها. ويأتي هذا الشريط في الوقت الذي تحاول فيه واشنطن والمجموعة الدولية محاصرة تنظيم «القاعدة» حتى عبر الإنترنت حيث يتزايد نشاط الأصوليين على نحو أثار مخاوف الخبراء في مجال مكافحة الإرهاب. ويظهر الفيلم الذي حمل عنوان «إرهابي» لقطات من توغل مدرعات قوات أجنبية في بلدة صغيرة، لكنها كثيفة البناء حيث يشرع عدد من أفراد «المقاومة» في إطلاق

الرصاص عليها. ويتقدم شاب يرتدي كوفية ويحمل على كتفه قاذفة صاروخ جاهزة للاستعمال. ثم يظهر آخر ويرصد جندياً أميركياً يخرج من المدرعة، ويطلق عليه وابلاً من الرصاص من بندقية «كلاشينكوف».

ويبرز الفيلم مشاهد عملية انتحارية تستهدف شخصية بارزة في مدينة، يبدو من معالمها أنها غربية وتقع قرب منطقة ساحلية، إذ تصدم سيارة مفخخة إحدى سيارات موكب ساحلية. إذ تصدم سيارة مفخخة إحدى سيارات موكب رسمي لدى مروره أمام بناية عالية، و«يقتل الطاغية»، وتطوق الشرطة المكان وتشتبك مع أفراد المجموعة الإرهابية التي نفذت العملية.

وأثنى أصوليون على هذا الفيلم، وقالوا إنه «عمل ممتاز ومجهود رائع». لكن بعضهم دعا إلى ضرورة «كتابة سيناريو» مستقبلاً والاعتماد على الحوار وذكر «آيات وأحاديث تحث على الجهاد»، وتوظيف هذه الوسيلة «لتنشئة أشبال الإسلام على محبة الجهاد وأهله». ونصح آخر بضرورة إدماج «التكبير حتى يموت المرتدون من غيظهم». أما أحد الأصوليين المعجبون بهذا الفيلم ويكنى «أبو حجر»، فطالب باستصدار «سلسلة حلقات عن كيفية إعداد المجاهد منذ الصغر. وهذا يكون ممتازاً لإعداد الأجيال القادمة للجهاد».

ورد منتج الفيلم، ولقبه «الفجر القريب» على ملاحظات الأصوليين، خصوصاً في شأن «بعث الروح في الأشخاص»، وقال: «بالنسبة لمسألة ذوات الأرواح فقد سألت عنها أحد المشائخ الذي أفتى لي بأن المسألة اختلف فيها العلماء وأن الأرجح ليس فيها

شيء، ولا حرج في ذلك طالما أنها من غير ظل، وأيضاً أنها مما يغيظ الأعداء»[1].

«بكّار» ومحمد الدرة

«بكّار» الشخصية المصرية الكرتونية الرمضانية نجحت في بعث رسائل غير مباشرة وحادة عبر التلفزيون الرسمي لا يجرؤ على مجرد التلميح لها أعتى البرامج السياسية.

«مدرسة الدرّة» التي تظهر في عناوين الحلقات التي يتابعها الأطفال وبعض الكبار بشغف عقب أذان المغرب تحمل رسالة واضحة لإحياء ذكرى الطفل الفلسطيني الشهيد محمد الدرة الذي قتله رصاص القوات الإسرائيلية وهو يحتمي بوالده قبل سنوات، وهو الذي اختفى عن الساحة تحت وطأة الأخبار الثقيلة الكبيرة الواردة من بقية أنحاء العالم، وخصوصاً العالم العربي.

ومن العالم العربي دارت إحدى حلقات «بكار» ـ وهو من ابتكار الراحلة الموهوبة الدكتور منى أبو النصر ـ حول اللحوم السودانية التي أسعدت ثم أرقت المجتمع المصري على مدى عامين، واتضح في ما بعد أن أخبار إبرام صفقاتها، ثم وصولها موانىء القاهرة لسد الفجوة الموجودة في السوق المصرية، ومواجهة الارتفاع الجنوني في أسعارها، ما هي إلا «بروباغاندا» لا تسمن ولا تغني من جوع. وعلى رغم أن أحداث الحلقات لم تتطرق إلى ضلوع الجهات الرسمية في الصفقات البروتينية، إلا أنها تعاملت مع القضية من منطلق عصابة نَصَبَتْ على تجار مصريين وأقنعتهم باستيراد كميات ضخمة من

(1) محمد مقدم، الحياة 20 ـ 12 ـ 2005.

اللحوم السودانية بأسعار زهيدة، ثم تركوهم في العراء، وهذا ما حدث لمجموع المصريين الذين كانوا يصطفون يومياً أمام المجمعات الاستهلاكية الحكومية للحصول على اللحوم الموعودين بها من دون جدوى. وإذا كان مشكوكاً في جدوى الحديث عن تلوث البيئة في البرامج التلفزيونية الرسمية نظراً إلى التطرق إليه من منطلق «اللف والدوران» وتجنب الغوص في أعماق المشكلة، فإن تطرق «بكار» لتلوث البيئة في القاهرة غاص في العمق من دون تكلّف. فحين نزل بكار وعمه إلى القاهرة قادمين من أسوان فوجئا بتلوث القاهرة الهوائي والضوضائي والسلوكي في شكل بالغ الذكاء[1].

«بكّار» وقمة الألفية

أيضاً تقوم شخصية «بكار» في سبع حلقات بتحقيق أهداف الألفية للتنمية، والتي تم اعتمادها خلال قمة الألفية التي عقدت في مقر الأمم المتحدة عام 2000، ينتج الحلقات برنامج الأمم المتحدة الإنمائي في مصر واستوديو كايرو كارتون بدعم من مؤسسة فودافون لتنمية المجتمع.

وتدور الحلقات حول باحث اجتماعي اسمه عامر يعمل في الفريق المعد لتقرير أهداف الألفية لمصر، يزور عامر الجنوب ليرى المشكلات التي تعيق تطبيق أهداف الألفية للتنمية ويساعده «بكار» وأصدقاؤه للتحري عن تلك المشكلات ومحاولة إيجاد حلول لها، وتتوالى الأحداث الشيقة والمفارقات الطريفة لبكار وأصدقائه حين يحاولون تعريف مجتمعهم بهذه الأهداف ودوره في تحقيقها.

(1) أمينة خيري، الحياة 23 ـ 10 ـ 2005.

ويحاول برنامج الأمم المتحدة الإنمائي من خلال مثل هذا النشاط الإعلامي أن يستهدف أعماراً مختلفة من المجتمع، ونشر مفهوم أهداف الألفية وتعريف الشعب المصري بأن تحقيق الأهداف بحلول عام 2015 يقع على عاتقه أيضاً وليس على عاتق الحكومة وحدها. وأكد رئيس وحدة الإعلام والمعلومات والتقارير في برنامج الأمم المتحدة الإنمائي نعمان الصياد أن «هدفنا هو أن يتبنى المواطن المصري في شكل عام قضية التنمية وتحقيق أهداف الألفية للتنمية على الأخص، لأن تحقيقها له عائد مباشر على حياته اليومية»، وأضاف: «إن أهداف الألفية تحدد الحد الأدنى من حياة كريمة وقد اتفق العالم أجمع أنه لا يصح ألا نحقق لشعوبها هذه الحياة الكريمة بما لدينا من تراكم معرفي ومادي ونحن على أعتاب الألفية الثالثة».

وقال مخرج «بكار» شريف جمال» قمت بالعمل مع الأمم المتحدة البرنامج الإنمائي في حملة أهداف الألفية للتنمية في إنتاج مغامرة من سبع حلقات بطلها بكار وأصدقاؤه وذلك لأن معظم المشاكل التي تعوق تحقيق أهداف الألفية موجودة في صعيد مصر ولأن «بكار» هو طفل الجنوب الأول وله شعبية كبيرة جداً بين الأطفال تساعد على زيادة الوعي بهذه الأهداف»[1].

«سبايس تون» و«الصحة العالمية»

أيضاً وضمن النشاط الأممي وقعت محطة «سبايس تون»[2] التلفزيونية الموجهة للأطفال مع منظمة الصحة العالمية اتفاق تعاون

(1) أمينة خيري، الحياة 2 ـ 11 ـ 2005.
(2) الحياة 7 ـ 9 ـ 2005.

يتم بموجبه «توجيه رسائل صحية للأطفال والشباب في منطقة الشرق الأوسط».

ويتضمن الاتفاق الذي وقّعه المدير الإقليمي للمنظمة الدكتور حسين جزائري ومدير المحطة فايز صبّاغ «بث رسائل صحية يومية تتفاوت مدة الواحدة منها بين دقيقة و3 دقائق.

وقال ممثل المنظمة في سورية أن الاتفاق «يهدف إلى توعية الأطفال من الأمراض المزمنة والبيئية وإنتاج برامج مرئية وسمعية للتثقيف الصحي فضلاً عن تعزيز دور المدرسة والأسرة في التوعية الصحية للأطفال»[1].

وأشار وزير الإعلام السوري إلى أهمية توجيه مثل هذه الرسائل للأطفال عبر أفلام الكرتون التي يتقبلها الطفل غاضباً بعيداً من التلقين.

وأكد حرص وزارة الإعلام على رفع مستوى الوعي الصحي وبخاصة لدى الأطفال، وكشف أن «لدى الوزارة توجهاً لإنشاء قناة شبابية متخصصة وأن فكرة إنشاء قناة للأطفال جديرة بالدراسة».

ومحطة «سبايس تون» دولية يقع فرعها الإنتاجي في دمشق ويصل بثها إلى أكثر من 100 مليون مشاهد داخل البلدان العربية وخارجها.

السنافر تحت الركام في إعلان

خرجت الأمم المتحدة لأول مرة عن «خطها» المعهود في الدعاية والترويج لحملاتها ونشاطاتها الإنسانية، وقررت رفع الصوت

(1) المرجع السابق.

بطريقة جديدة تصيب في العمق وذلك نظراً لتزايد عدم الاكتراث في البلدان الغنية.

المفاجأة كانت عبر استخدام منظمة الأمم المتحدة لرعاية الطفولة (يونيسيف) لسلسلة الرسوم المتحركة للأطفال «السنافر» وذلك في إعلان مدّته 30 ثانية يبدأ بطريقة طبيعية تشبه بدايته بداية أي حلقة من المسلسل «الترفيهي»: السنافر يرقصون في دائرة ويؤدون أغنيتهم الخاصة بسعادة وسلام في أحضان الطبيعة الهادئة مع أصدقائهم الحيوانات تحت سماء زرقاء صافية.. وفجأة تخترق هذه الأجواء المسالمة غارة جوية تقصف القرية فتشعل النيران في المنازل ويركض السنافر مذعورين تائهين، وبعضهم تصيبه الصواريخ المتساقطة من السماء فيقع أرضاً ويموت.. وفي آخر مشهد من الفيلم يسمع بكاء «بابيبي ـ سنفور» (الطفل سنفور) المرمي أرضاً والمصاب بحروق في وجهه ثم تظهر الجملة الختامية: «لا تدع الحرب تؤثر على عالم الأطفال».

لا يتوجه هذا الإعلان للأطفال لذلك يمنع عرضه قبل الساعة التاسعة ليلاً، وقد أثار الجدل في المجتمع البلجيكي وشكّل صدمة لدى المشاهدين البالغين خاصة أن مسلسل «قرية السنافر» يعتبر جزءاً من الحضارة البلجيكية وهو أحد الإنتاجات المحلية البلجيكية (من تأليف الفنان البلجيكي «بييو PEYO») والتي اكتسبت شهرة عالمية. ويقول فيليب هينون الناطق باسم «اليونيسف» في بلجيكا أن هدف الإعلان كان بالفعل «خلق صدمة لدى المشاهدين، وحثّهم على التساؤل والتأثير على عواطفهم ومشاعرهم بدرجة عالية، وذلك للفت انتباه المشاهد للحملات الإنسانية وحثّه على التبرّع والاهتمام بهذه القضايا الملحّة.

النماذج أكثر من أن تحصر في دراسة، وتوصيات المؤتمرات والدراسات، أضعف من أن تُتَرجم دعواتها إلى أمر واقع، يحمي عقل الطفل من تلقّي الرسائل الإعلانية والسياسية.

.. وللشاشة إيجابيات

التلفزيون بريء من التهمة؟!

في المقابل ثمة أنصار للشاشة، فهناك دراسات تصبّ في مصلحتهم، دون أن يكون هناك فيصل يضع النقاط على الحروف، ويحسب المسألة لصالح هذا أو ذاك.

فقد قال باحثون أنه خلافاً لما أشارت إليه نتائج دراسات سابقة، لا يبدو أن الأطفال الذين يشاهدون التلفزيون فترات طويلة قد يعانون اضطرابات سلوكية في المدرسة.

وجاء في البحث الذي أجري في جامعة تكساس للتكنولوجيا في لوبوك، أنه إذا كان ثمة ارتباط بين الاضطرابات السلوكية للأطفال والتلفزيون فأنَّه قد يتعلق بأن الآباء الذين يتسم أبناؤهم بنشاط مفرط قد يصيبهم بالإرهاق، يتركونهم يشاهدون التلفزيون أوقاتاً أطول كي يريحوا أنفسهم، وأن التلفزيون بريء من تهمة إصابة الأطفال باضطراب فرط الحركة وتشتت الانتباه.

واستندت الدراسة إلى تقويم لنتائج استطلاع أجري على آباء ومدرسين لخمسة آلاف طفل أميركي مدى سنتين لتحديد ما إذا كانت عادات مشاهدة التلفزيون خلال فترة العام الأول من الدراسة تنجم عنها اضطرابات خاصة بفقدان التركيز. واكتشف الباحثون أن نمو الطفل يتم على نحو تبادلي، إذ تؤثر الصفات المميزة للطفل على أسلوب تربيته، كما يؤثر أسلوب التربية على تشكيل شخصية الطفل.

وقالوا إنه «ربما يلجأ الوالدان اللذان يصابان بالإجهاد من جراء النشاط المفرط لطفلهما وعدم انتباهه إلى التلفزيون ليكون جليس أطفال أكثر مما يلجأ إليه الآباء الذين عندهم أطفال أقل نشاطاً وأكثر تركيزا». وخلصت إلى أن العلاقة بين مشاهدة التلفزيون في سن مبكرة واضطرابات الانتباه في سن لاحقة قد تكون ذات علاقة بمزاج الطفل أكثر من علاقتها بتأثير التلفزيون عليه[1].

أيضاً خلص الباحثون الاقتصاديون في جامعتين من جامعات شيكاغو إلى أنه عندما يتعلق الأمر بنتائج الاختبارات الأكاديمية، فأنَّ جهاز التلفزيون ليس سيئاً بالنسبة إلى الأولاد إلى الدرجة التي يظنها البعض.

وقال مساعد أستاذ العلوم الاقتصادية في كلية الأعمال التابعة لجامعة شيكاغو ماثيو غينتزكو إنَّ معظم الدراسات أظهرت نتائج سلبية لتأثير التلفزيون على مجموعة من الأولاد تشاهد البرامج التلفزيونية بشكل مستمر مقارنة مع مجموعة أخرى من الأولاد لا تشاهد التلفزيون، علماً أن الأوضاع الاقتصادية لمجموعتي الأولاد مختلفة كلياً.

غير أن الدراسة الحديثة بنيت على أساس «الاختبارات الطبيعية» التي نتجت من كيفية إدخال التلفزيون إلى الولايات المتحدة في أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات من القرن الماضي عندما حصلت بعض المدن على الخدمات التلفزيونية قبل مدن أخرى بخمس سنوات.

وقالت الباحثة جيسي شابيرو إنَّ أرقام الدراسة الحديثة أظهرت

(1) النهار 7 ـ 3 ـ 2006 (عن وكالة رويترز).

بعض النتائج الإيجابية القليلة عند الأولاد الذين نشأوا وهم يشاهدون البرامج التلفزيونية.

ونشرت صحيفة «النيويورك تايمس» أن أليزابيت فانديو اتر أستاذة التطور الإنساني في جامعة تكساس ومديرة مركز الأبحاث على التقنيات المتفاعلة والتلفزيون والأولاد، قد أشادت بنتائج هذه الدراسة، وقالت إنها تضيف «مزيداً من الإثباتات أن التلفزيون ليس هذه الآلة الشيطانية أو السيئة»[1].

الكرتون كمسكن للألم

من جانب آخر وجدت دراسة إيطالية أن التلفزيون يمكن أن يستخدم كمسكن للألم عندما يتعلق الأمر بالأطفال، ولعله في هذه الحال أكثر فاعلية من حضن الأم.

واعتمدت الدراسة التي أجراها باحثون في جامعة سيينا ونشرت في دورية «أرشيف أمراض الطفولة» 69 طفلاً تراوحت أعمارهم بين 7 و12 سنة وقسموا إلى ثلاث مجموعات لأخذ عينات دم منهم.

ولم تقدم إلى أفراد إحدى المجموعات أي وسائل إلهاء أثناء أخذ عينات الدم منهم، بينما حاولت أمهات أفراد المجموعة الثانية صرف انتباه الصغار بالتحدث إليهم واسترضائهم ومعانقتهم. وفي المجموعة الثالثة، سمح للأطفال بمشاهدة رسوم متحركة أثناء أخذ الدم.

وكانت النتيجة أن الأطفال الذين سجلوا أعلى درجات الألم كانوا ضمن المجموعة التي لم تتلق أي وسيلة إلهاء، وسجلت درجات أعلى

(1) النهار 1 ـ 3 ـ 2006 (عن وكالة ي. ب. أ).

بنحو ثلاثة أمثال لدى الأطفال الذين سمح لهم بمشاهدة الرسوم المتحركة. أما الذين كانت أمهاتهم تراضيهم، فسجلوا درجات متوسطة للألم.

وفي المتوسط، كانت علامات الألم التي سجلتها الأمهات أعلى من تلك التي سجلها الأطفال، لكنهن سجلن أيضاً أدنى درجات ألم بالنسبة إلى الأطفال الذين سمح لهم بمشاهدة التلفزيون.

وقال الباحثون في تقريرهم: «المستوى العالي للألم الذي سجله الأطفال أثناء محاولة الأمهات إلهاءهم تظهر صعوبة تفاعل الأمهات بإيجابية في لحظة صعبة في حياة أطفالهن»[1].

علاج للأطفال

إحدى المستشفيات الأمريكية، حوّلت النظرية إلى واقع، فقد اعتاد جاك لو وهو في الثالثة من عمره أن يكون متوتراً عندما يذهب إلى المستشفى لإجراء الفحوص المعتادة، حتى أنه كان يعطى مهدئاً ثم يعود إلى طبيعته بعد ساعات عدة. ولكن هذه المرة كان الأمر مختلفاً وأسرع بكثير.

كان أول مريض في العالم في أول «تجربة محيطة» بجناح الأشعة وهي غرفة خاصة صممت لتهدئة الأطفال بدأت العمل في آب 2000 في مستشفى ادفوكيت لوثيرن العام للأطفال في بارك ريدج في الينوي في الولايات المتحدة.

بدلاً من ضوء التعقيم الأبيض ترقش الجدران بنماذج انسيابية من الأضواء الصفر والحمر والقرمزية والخضر والزرق. وكان الآلة

(1) الحياة 19 ـ 8 ـ 2006 (عن وكالة رويترز).

الوحيدة هي آلة التصوير المقطعي التي اتخذت اللون الأبيض الضارب إلى الصفرة. وعلى الجدار كان يعرض فيلم من رسوم متحركة. وقالت سيندي والدة جاك: «ظن أنه في السينما وطلب الفشار»[1].

وبعد ستة أشهر من افتتاحها أسفرت غرفة الأشعة الجديدة عن جرعات أقل من الإشعاع للمرضى الصغار لأنه لم تعد هناك حاجة إلى إعادة الفحص مراراً كما يقول الدكتور جون أناستوس. وقال: «لدينا نتائج ملموسة للغاية»[2].

وتبدأ في غرفة الانتظار جهود تهدئة المخاوف حيث تبدأ عملية تخفيف الرهبة من الاختبار بأن يضع الأطفال الدمى في نموذج جهاز صغير للأشعة. والكثير من الأطفال الذين يفدون إلى المستشفى من أجل الأشعة المقطعية لديهم أورام أو تشوهات في المخ.

ويختار الأطفال أفلام الكرتون كفكرة للحركة ويصدر لهم نوع من البطاقة الذكية. وعندما يدخلون غرفة الأشعة يمررون البطاقة على جهاز ويبدأ الفيلم على الجدار المنحني والسقف كاملاً بالصوت والموسيقى.

ومثل ذلك اختلافاً كبيراً لجاك، ففي الماضي كان يتوسل أمه أن تقفل عائدة أثناء توجههما إلى المستشفى في سيارتهما. وقالت «ما يحطم قلبي هو عندما يصرخ كلا يا أمي.. لا يا أمي.. كلا يا أمي».

هذه المرة بدلاً من الشعور بالهلع وإعطائه مهدئاً ظل جاك هادئاً وشارك في عملية الفحص.

---

(1) المرجع السابق.

(2) م.ن.

إنَّ خلق «البيئة المحيطة» في غرفة للأشعة فيها أضواء وفي المستقبل روائح يضيف نحو 10 في المئة إلى كلفة غرفة الفحص بالأشعة المقطعية. ولكن الأطباء في بارك ريدج يقولون أن المكاسب مهمة.

وقال أناستوس: «ما صممناه ليس مجرد غرفة فيها أضواء مسلية ولكننا أوجدنا مواجهة تهدف إلى خلق تأثير في الطفل. الأطفال والآباء تكون تجربتهم أكثر سعادة ولا تحتاج سوى قلة من الأطفال إلى إعطائهم مهدئات»[1].

إنَّ الأمر كله يتعلق بتقليص الخوف من اختبار يحتاج أن يتمدد المريض ساكناً تماماً. ويقول المستشفي إنَّ المهدئات يمكن أن تضيف ست إلى ثماني ساعات من وقت الشفاء إلى إجراء يمكن استكماله خلال 15 دقيقة.

وقال أناستوس: «تخيل إنك في الثالثة من عمرك وتذهب إلى المستشفى. فجأة، تبدو الرائحة غير مريحة والأضواء مبهرة على غير العادة»[2].

وعلى رغم أن النتائج النهائية لم يتم توثيقها بعد إلا أن الشركة التي تقف وراء هذه التكنولوجيا تقول أن البيانات الأولية تشير إلى أن عدد المرضى الذين كان يتوجب إعطاؤهم مهدئات انخفض إلى النصف.

وقال جوكو كارفينين المسؤول التنفيذي الأول لشركة فيليبس للأنظمة الطبية التي جهزت الغرفة إلى جانب الشركات الأخرى

---

(1) المرجع السابق.

(2) م.ن.

العاملة في مجال الإضاءة وشبه الموصلات: «يبدو أن هناك انخفاضاً بنسبة 50 في المئة في إعطاء عقار التهدئة، الأمر الذي يحول علاجاً مدته ساعة إلى خمس أو ست أو سبع ساعات علاج بحضور ممرضة»[1].

الشاشة وتحفيز الدماغ

في دراسة أخرى، تمّت الإجابة على السؤال التالي:

هل يُمضي أطفالكم أوقاتهم ملتصقين بالشاشة الصغيرة أو أمام الألعاب الالكترونية؟ قد لا يكون الأمر خطيراً إلى هذه الدرجة. على العكس، فبحسب الباحث الأميركي ستيفن جونسون[2] العديد من المسلسلات والألعاب تحفز الدماغ في طريقة صحية جداً.

في الرابع والعشرين من كانون الثاني 2005، بثت شبكة فوكس حلقات من 24 heures chrono ثريلر بالزمن الواقعي معروف بإثارته الشديدة وعنفه الرهيب في الغالب. كان المسلسل أثار في الأسابيع السابقة الكثير من الجدال ولا سيما حول الصورة التي يقدمها عن «الإرهابيين» المسلمين ونزوعه إلى عرض مشاهد التعذيب. حلقة الرابع والعشرين من كانون الثاني لم تفعل سوى تأجيج الجدال أكثر، إذ في لحظة ما من الحلقة يستخدم أحد الإرهابيين قاتلاً مأجوراً لقتل ابنه لأنه لا يدعم القضية تماماً، وفي لحظة أخرى يوافق وزير الدفاع على تعذيب ابنه بغية اكتشاف الدلائل حول مؤامرة إرهابية. لكن العنف الصريح وقلق ما بعد الحادي عشر من

(1) الحياة 20 ـ 12 ـ 2006 (عن وكالة رويترز).
(2) النهار 18 ـ 7 ـ 2005 (عن «لوكورييه انترناسيونال»).

أيلول ليسا عنصري المسلسل الوحيدين الذي لم يكن ممكناً أن نشاهده في وقت الذروة قبل عشرين عاماً.

هذا التحول البارز في المحتوى يترافق مع تحول بارز هو الآخر في الشكل، إذ على مدى أربع وأربعين دقيقة تنسج الحلقة روابط بين إحدى وعشرين شخصية مختلفة، لكل شخصيتها الواضحة التحديد وعلاقاتها الدقيقة جداً مع الشخوص الأخرى. تسع حبكات أساسية تتركز، كل منها يتعلق بحوادث ومعلومات تجد جذورها في الحلقات السابقة، ولو رسمنا خريطة لكل تلك الحبكات وكل هذه الشخوص التي تتلاقى وتتقاطع لحصلنا على بنية أشبه بـMiddlemarch (عمل أدبي لجورج إليوت) منها بمسلسل قديم ناجح مثل «بونانزا».

يقول جونسون[1]: طوال أعوام بقينا نعتبر من الثابت أن المستوى الثقافي للجمهور لا ينفك يتراجع، فـ«الجمهور» يطلب ملذات بسيطة وغبية، ومجموعات الاتصالات الكبرى تجهد لإعطائه ما يرغب فيه. بينما ما يحصل في الواقع معاكس لذلك تماماً، فالثقافة الجماهيرية تطالب أكثر فأكثر بجهود ذهنية، يتضح في النهاية أن أشكال الترفيه الجماهيري الأقل اعتباراً مثل ألعاب الفيديو والبرامج العنيفة ومسلسلات المراهقين تمتلك قيمة مغذية للعقل، وهذا الميل هو في اعتقادي أكثر القوى تأثيراً اليوم على التطور الذهني لدى الشباب، وهذا في رأيي قوة إيجابية في شكل كبير، فخلافاً لما يقال لا تتسبب بإضعاف قوانا العقلية بل تنميها. رغم ذلك، ليس هناك ما نسمعه حول الترفيه الجماهيري، إذ تروي لنا بالأحرى قصص رهيبة

(1) المرجع السابق.

حول التبعية والعنف وبلادة الذهن، انطلاقاً من مبدأ أن البرامج التي تقدم السيجارة أو العنف المجاني في قالب مؤيد هي برامج مضرة، بينما تلك التي تبيِّن سيئات الحمل لدى المراهقات أو التعصب لها تأثير إيجابي على المجتمع. لو تبنينا وجهة النظر الأخلاقية هذه لقلنا أن الثقافة الشعبية لم تنفك تتدهور في الخمسين سنة الأخيرة فالقصص أضحت أشد التباساً والأبطال المضادين تضاعفوا.

ويتابع جونسون[1]: استناداً إلى هذا المنطق يكون الرد في الغالب أننا ربحنا على صعيد الواقعية ما خسرناه على صعيد الوضوح الأخلاقي، ففي العالم الحقيقي لا نحذر الجمهور من أن بعض الصور قد تكون صادمة ونكون في حال أفضل مع برامج ترفيهية مثل «سوپرانو» الذي يعكس حال مجتمعنا والتباسه الأخلاقي. أؤيد هذه الحجة لكن ذلك ليس موضوع بحثي. أعتقد أن هناك طرقاً أخرى لتقويم الفضائل المجتمعية للثقافة الشعبية عبر النظر إليها ليس كأمثولات حياتية بل كجلسات تدريب ذهني. ينقل التلفزيون وألعاب الفيديو اليوم بلا شك رسائل سلبية أكثر، لكن ذلك ليس المعيار الوحيد للحكم عما إذا كان لها تأثير إيجابي أو لا، إذ يجب كذلك أن نأخذ في الاعتبار الجهد الفكري الذي ترغمنا على بذله، وهنا يظهر ميل وودي والرجال الآليين».

فلنفكر في التأثيرات الإيجابية على الصعيد الإدراكي التي نعزوها عادة إلى القراءة: التركيز، الصبر، تحليل النص. حسناً، على مدى الأعوام باشر التلفزيون في استدعاء هذه القوى الذهنية نفسها،

(1) المرجع السابق.

والطريقة الفضلى لملاحظة تأثير «وودي والرجال الآليين» هو أن نشاهد بضع ساعات من برامج وأواخر السبعينات. من المرجح جداً أني يشعر مشاهد اليوم بالملل التام حيال مسلسل مثل «دالاس»، ليس فقط لأنه أقل جرأة مقارنة بما يقدم اليوم بل لأن كل مشهد أقل غنى بكثير من حيث المعلومات. فمع «دالاس» لا يحتاج المشاهد المعاصر إلى التفكير لفهم ما يجري من حوادث، وعندما لا نكون في حاجة إلى التفكير يصيبنا الملل. معظم البرامج الحديثة الناجحة مثل heures 24 chrono و«سورفايفر»، «الياس»، و«لوست: العودة إلى الجذور» و«ذي سيمبسن» و«طوارىء» تقوم بخلاف ذلك وتحوي في كل مشهد شبكة مراجع مكثفة. من هنا يجب التركيز من أجل متابعة كل الحبكة، وبذلك نحرّض مناطق من الدماغ تسمح برسم خريطة الشبكات الاجتماعية عبر إدراج العناصر المعلوماتية الناقصة وربط الخيوط الروائية العديدة.

بالتأكيد، ليس حباً بالمشاهدين يعمل قطاع الصناعة الترفيهية على مضاعفة تعقيد منتجاته، وإذا كان «ميل وودي والرجال الآليين» موجوداً فلأنه من المربح جعل الثقافة أكثر تطلباً من الناحية الفكرية. الشبكات التي تجني جزءاً كبيراً من عائداتها من خلال إعادة بيع البرامج ونسخ الـ«دي ڤي دي» تتعرض لضغوط مالية هائلة لتنفيذ مسلسلات يمكن مشاهدتها أكثر من مرة وتكشف في كل مرة معلومات جديدة. في المقابل أضحى الإنترنت مساحة تحليل وتعليق تسمح لمسلسلات معقدة بأن تزدهر، فكل حلقة من مسلسل مثل «لوست: العودة إلى الجذور» أو «آلياس» تُشرّح على موقع المعجبين في جدية لم نعرفها إلا لدى مفسري الإنجيل. أخيراً عوّدت الألعاب

التفاعلية جيلاً كاملاً من مستهلكي الترفيه اكتشاف محيطات معقدة والتفكير في سرعة، وجمهور اللاعبين هذا يتوقع اليوم تحفيزاً مماثلاً من المسلسلات التلفزيونية.

ويوضح جونسون[1]: عندما أقول إنَّ الثقافة الشعبية تجعلنا أكثر ذكاء لا أقصد بذلك أن ليس على الأهل أن يقلقوا في شأن الطريقة التي يلهو بها أولادهم. اقترح فقط تبديل معايير الحكم عما ليس فيه فائدة على الصعيد الإدراكي وعما هو مفيد فعلاً. فأبعد من مسألة العنف أو الذوق السيىء أو الملابس غير المحتشمة أو الشتائم، تكمن المسألة الحقيقية في معرفة هل المسلسل يحفز أو يخدر العقل؟ وهل هناك حبكة مركبة من العلاقات؟ وهل الشخصية التي نراها على الشاشة تمضي وقتها في إطلاق النار على كل ما يتحرك أم تحاول حل مسائل وإدارة موارد؟ إذا كان أطفالكم يريدون مشاهدة برنامج من نوع «تلفزيون الواقع» ادفعوهم إلى مشاهدة «سورفايفر» بدلاً من «فير فاكتور»، ولو أرادوا مشاهدة مسلسل بوليسي فليكن 24 heures chrono بدلاً من «نيويورك ريستريكت» ولو أرادوا اللهو بلعبة الكترونية عنيفة شجعوهم على لعب Grand Theft Auto بدلاً من Quake.

أكثر فأكثر يتقاسم الأطفال والراشدون الهوايات نفسها ولديهم الكثير ليربحوه في ذلك. نميل في الغالب إلى أن نرى في ذلك انتهاكاً لحدود معينة.

التشويش على صعيد الأجيال ينطوي على ناحية إيجابية لا نمنحها القيمة التي تستحقها، فهذا يرغم الأطفال على التفكير

(1) المرجع السابق.

كالراشدين: أن يحللوا شبكات اجتماعية مركبة، أن يديروا موارد، أن يتابعوا حبكات سردية متشابكة وأن يكشفوا عن حوافز متواترة. في المقابل يتعلم الراشدون من الشباب التآلف مع كل موجة تكنولوجية جديدة وإعادة اكتشاف لذة اللعب الذهنية. على الأهل أن ينظروا إلى هذا كخط لا كمشكلة، فالثقافة الذكية لم تبقَ ذاك الشيء الذي نرغم الأطفال على ابتلاعه كالخضار، إنه أمر نتقاسمه معهم.

الطفل ومشاهد العنف

يلفت عدد من المحلّلين النفسيين إلى حاجة الطفل إلى مشاهدة مقدار من مشاهد العنف من أجل تنفيس طاقة العنف الكامنة داخله، وأن هناك خدمة تقدمها هذه المشاهد عبر كشف ما يكمن في نفوس الصغار من مشكلات نفسية، ما يسمح بتشخيصها ومعالجتها.

هذا الإيضاح تشدد عليه الدكتورة رندا شليطا المحللة النفسية والأستاذة الجامعية في مقابلة مع صحيفة الحياة[1]، مؤكدة أن حرمان الطفل من مشاهد العنف التلفزيونية هو حرمانه من أحد مشاهد الحياة، محذرة من خطورة الاستمرار في ترويج بعض المفاهيم الخاطئة وغير العلمية، كاعتبار الطفل ورقة بيضاء وأنه يتماهى مع البطل النموذجي. «الطفل ليس ورقة بيضاء بل هو يحمل رؤيته وخياله وكوامن ذاته ومشاعر متناقضة متصارعة، وهو يكون أناة من نماذج عدة منتقياً جزءاً من كل نموذج، معدّلاً ما يلتقطه من الخارج بروافد ذاتية أهمها قدرته على الخلق والتخيل. إن صح علمياً أن الطفل يتبع نموذجاً معيناً من ألفه إلى يائه ومن دون حياد

(1) الحياة 11 ـ 8 ـ 2005 حوار بسمة الخطيب.

لوصلت المجتمعات إلى المثالية بسهولة، وتخلصت من كل مشكلات تنمية أبنائها وتربيتهم عبر تعميم نموذج مثالي يقتدي به الصغار وكفى».

الأمر ليس كذلك ولن يكون كما تؤكد شليطا، محذرة من أن لا شيء يضر بالطفل وفق علم النفس الحديث أكثر من النماذج المثالية الجامدة غير القابلة للتعديل، التي إذا ما فرضت على الطفل تأسره، وقد تتحول عقدة نفسية وحاجزاً يصطدم به في أي مجال من مجالات الحياة. وكمثال تورد محاولات أبناء الشخصيات الفذة الناجحة جداً الذين لا ينجحون في تخطي أهلهم مهما حاولوا، بل يشكل نجاح أهلهم الباهر حاجزاً بينهم وبين تحقيق ذواتهم والتقدم في الحياة، ما يمنعهم من تحقيق شخصيات مستقلة لأنهم دوماً عرضة للمقارنة مع أهلهم الأفذاذ.

تعود شليطا إلى الأخطاء الشائعة في التعامل مع الطفل ومنها اعتباره كائناً بريئاً، بينما هو ليس كذلك. الطفل يختزن طاقة عنف وأذى وفوضى وحب وحنان وخلق وخيال وفضول لاكتشاف الآخرين والعالم حوله..

إذن القدر القليل والمنطقي من العنف ضرورة نفسية للتنفيس عن طاقة العنف الموجودة داخل الطفل وإلا لبقيت مختزنة داخله وأدت إلى تفاقمات خطيرة... والنماذج المثالية الخيّرة بالمطلق مثلاً تضر الطفل إلى أبعد حدود، فما من إنسان مثالي، والطفل بدوره ليس مثالياً ولا نستطيع أن نطلب منه ما فوق طاقته بل يكفي أن نطلب منه أن يكون أفضل ما يمكنه أن يكون عليه. هنا تكمن أهمية خلق شخصيات كرتونية أو غير كرتونية تحاكي الأطفال وتكون عرضة للخطأ والسهو وتخوض تجارب تخوّلها الوقوع ثم الوقوف

من جديد. ولا بأس البتة من شخصيات شريرة تعاقب في النهاية لأن الطفل يبحث في لا وعيه عن العدالة ويطلبها في التلفزيون قبل أن يطلبها في يومياته المدرسية أو العائلية، ويرتاح كثيراً إذا ما وجدها تتحقق عبر التلفزيون الذي يحبه. ولا بأس من أن يكون بطله غيوراً لأن الغيرة شعور طبيعي والطفل يشعر به لكنه قد يحمل شعوراً بالذنب يتفاقم داخله إذا ما غرسنا في ذهنه أن الغيرة عار وخطيئة.

التربية الترفيهية

وفي مقالة لفرانسواز عيد في البلد (2005/8/21) اعتبر الكاتب أن «التربية الترفيهية» اكتسبت مكانة بالغة الأهمية في ظل الوتيرة المتسارعة للتغيير، إذ باتت ضرورة ملحة من شأنها أن ترسم ملامح المستقبل بصورة أكثر إشراقاً وعلى نحو مختلف عن الحاضر. وسيصبح امتلاك القدرة على التكيف مع المتغيرات أكثر أهمية من ذي قبل، في الوقت الذي ستتحول فيه القدرة على توفير الحلول السريعة للمشكلات إلى مهارة ثمينة. ونظراً لما تضفيه من مرح على العملية التعليمية، فإن «التربية الترفيهية» تفتح آفاقاً جديدة لنقل المعرفة من بيئات وثقافات مختلفة إلى الأطفال بطريقة سهلة ومحببة، ما يعزز قدرتهم على فهم العالم من حولهم بشكل أعمق وأشمل.

وتشكل الشاشة الصغيرة اليوم أكثر وسائل الإعلام فاعلية لنشر التربية الترفيهية، بخاصة أنها تحظى بمعدل الانتشار الأعلى في العالم العربي مقارنة بغيرها من وسائل الإعلام. ومن المؤكد أن دمج التعليم في بيئة الترفيه التلفزيوني يضفي المزيد من القيمة على

هذه الرسالة السامية، إذ يهدف هذا النموذج التربوي الجديد إلى توفير فرصة للتعلم في قالب ترفيهي يقدم ويعرض المناهج الدراسية بطرق مبتكرة ومدروسة تلبي حاجة الأطفال.

ومما لا جدل فيه، هو الدور المؤثر الذي قد يلعبه التلفاز في تعزيز قدرة الطفل على التعلم، إذ يشير العديد من الأبحاث والدراسات إلى التأثير الإيجابي للبرامج الهادفة الخالية من مشاهد العنف، والدور الذي قد تلعبه في تمكين الطلاب من نهل العلم بمزيد من القابلية والسرعة. وقد تبيَّن أن الأطفال الذين يشاهدون برامج تلفزيونية تربوية قبل سن الدخول إلى المدرسة يحققون أداء أفضل في اختبارات القراءة والحساب قياساً بأقرانهم الذين لم يشاهدوا مثل تلك البرامج. ويمكن الشاشة الصغيرة، إذا ما تم توظيفها جيداً، أن تكون وسيلة إيجابية وفاعلة تسهم في تعزيز وعي الطفل وإنضاج تفكيره، عدا أنها تساعده في اكتشاف قدراته الكامنة ومواهبه الدفينة.

وقد تبلورت العلاقة الوثيقة بين التلفاز والقطاعات التعليمية عملياً، عبر العديد من المبادرات الناجحة، إذ قام عدد من الجامعات والكليات في أنحاء العالم بعقد اتفاقات مع محطات تلفزيونية لتقديم مسابقات تعليمية عبر الأثر في إطار التعليم عن بعد. وبالفعل، فقد لعب وجود التلفاز في قاعات الدرس دوراً إيجابياً في بعض تلك الجامعات. وفي حين توجد أمثلة كثيرة عن البرامج التلفزيونية التعليمية العامة، هناك حالياً برامج وقنوات متخصصة في مختلف جوانب العملية التعليمية.

وتتميز قناة «التربية الترفيهية» عن غيرها بأنها توفر أيضاً خبرات وفعاليات تربوية يستمتع بها الآباء والأطفال معاً، وكذلك

برامج تفاعلية تتيح لهم الاستمتاع والتعلم بسهولة ضمن بيئة منزلية مريحة. وتهدف البرامج التي تقدمها محطة من هذا النوع إلى اكتشاف مواهب الطفل وتعزيز قدرته على القراءة وحل المشكلات وتنمية مهارات التفكير لديه من خلال شخصيات مألوفة.

وفي عالم اليوم، بات الطفل يألف الرسائل المقتضبة ومعتاداً على التفاعل والتواصل ومعالجة المعلومات وعلى تحديد خياراته على نحو سريع، بينما يسعى المعلمون إلى نقل المعرفة بأعلى كفاءة ممكنة. وبالتالي، فأنَّ نقل الرسالة الصحيحة يتطلب وجود عملية تعليمية متقنة وسلسة. ومن هنا تتجلى أهمية القناة التربوية الترفيهية، التي لا تكتفي ببث سيل من الأفكار، كما تفعل البرامج الترفيهية التقليدية، بل تدفع الأطفال إلى التساؤل وتضعهم أمام تحديات وتلهو معهم وتسليهم في الوقت ذاته. فهي تدربهم وتقوم بإعدادهم للتفاعل مع وسيلة الإعلام التي ستكون نافذتهم على العالم عندما يكبرون، كما أنها تعلمهم كيف يكونون آراءهم ويطورونها ويعدلونها وفق الحقائق الجديدة.

فالتحدي هنا يتمثل في إضفاء الترفيه على عملية التربية التلفزيونية ضمن إطارها الاجتماعي، بما يتيح تحويل المشاهد السلبي إلى متعلم إيجابي، والآليات التي توفر هذا النوع من التعليم التفاعلي متوفرة سلفاً. ولكن هناك تساؤلات عديدة ينبغي التوقف عندها، منها على سبيل المثال[1]:

كيف يمكن تحويل المشاهد العادي إلى متعلم إيجابي؟

(1) المرجع السابق.

كيف يمكن توفير فرص التعليم والتربية عبر التلفاز لجميع المتعلمين المرتقبين في المنازل؟

كيف يمكن تطوير التعليم التفاعلي (من خلال الألعاب والمسابقات وغيرها) لتشجيع الناس على التعلم والتفكير؟

كيف نتأكد من أن الأطفال يتعلمون فعلاً؟

كيف نشجع الآباء والأبناء على المشاركة لتحقيق انتشار مفهوم «التربية الترفيهية» على نطاق واسع؟

كيف يمكن الدمج بين الأنظمة الداعمة للعملية التعليمية (البشرية والالكترونية)؟ ومن سيتولى توفيرها؟

من سيوفر البنية التحتية ويتابع صيانتها؟

يعتبر الدكتور مدحت أبو بكر أن البرامج التلفزيونية الموجهة إلى الأطفال تساهم في عمليات النمو والتنمية النفسية والاجتماعية للطفل، وتساهم في تنشئة وإصلاح سلوكياته ورعايتها بالمشاركة مع الجهود التي يقوم بها أعضاء النسق الأسري المدرسي، وكما يوضح علماء الاجتماع والباحثون المتخصصون في علم الاجتماع التربوي، ومن بينهم د. إبراهيم ناصر الوظائف التي تؤديها العملية التربوية، يمكن أن توجه تلك الوظائف إلى البرامج المقدمة إلى الأطفال عبر الفضائيات العربية، سواء كانت ترفيهية أو تعليمية أو تدريبية، سواء قدمت عبر المذيعين الأطفال أو مقدمي البرامج الكبار، أو قدمت من خلال النمط الدرامي الجاذب للطفل ككيان إنساني محب للحكايات، أو جمعت بين الجانبين التقديمي التعليمي والدرامي.

تعالوا أولاً لنرى الوظائف التي اجتهد في وضعها د. ناصر والتي تقوم بها التربية، أنها محددة من خلاله في الوظائف التالية:

1 ـ نقل الأنماط السلوكية للفرد من المجتمع.

2 ـ نقل التراث الثقافي من الأجيال السابقة إلى الأجيال اللاحقة.

3 ـ تعديل التراث الثقافي، وتغيير مكوناته بإضافة ما يفيد، وحذف ما لا يفيد.

4 ـ إكساب الفرد خبرات اجتماعية نابعة من قيم ومعتقدات ونظم وعادات وتقاليد وسلوك الجماعة التي يعيش بينها.

5 ـ تنوير الفرد بالمعلومات الحديثة التي تغزو الحياة اليومية في المجتمع.

عنف ألعاب الفيديو

ابتكارات متسارعة

ألعاب الفيديو على وشك أن تتخلى عن شخصيتها التقليدية. لن تبقى، كما درجت عليه الحال في العقود الثلاثة الماضية، تسلية مجانية تخلو من الإثارة الذهنية. والأرجح أنها ستنطوي، خلال السنوات القليلة المقبلة، على ما يجعل منها اختباراً حقيقياً لقدرات المراهقين والبالغين على مواجهة أنماط من التحديات مقتبسة من تعقيدات الحياة عينها.

يقول جهاد الترك[1]: ببساطة، ستتحوّل هذه الألعاب مجالاً غنياً بالدلالات الثقافية والفكرية. والمتوقع، في هذا السياق، أن تكون شاشة الكومبيوتر، مثالاً ذكياً يحاكي الأزمات والمواقف الحرجة والظروف الصعبة التي أصبحت سمة العصر. إنها الحياة عينها تتخذ شكلاً مكثفاً هو الشاشة المرئيّة، حيث يبدأ الصراع المبكر بين اللاعب والبرنامج الإلكتروني المستخدم.

ما هي طبيعة هذه الألعاب التي ستغزو الأسواق قريباً؟ أي مشروع ثقافي ستحمله إلى الناشئة وسواهم من الأجيال الأكبر سناً؟ هل ثمة ما يُستشف منها بأنها قد تشير إلى مرحلة مغايرة في مقاربة تكوين المفاهيم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية؟

(1) جهاد الترك، المستقبل، 24 ـ 6 ـ 2005.

تقوم هذه الألعاب، بالدرجة الأولى، على ما بات يعرف اصطلاحاً بتقنيات الذكاء الاصطناعي، أو «الحقيقة الافتراضية» المتمثلة في الإدراك الذهني على نحو لا يعني أنها متوافرة في الحيّز الواقعي. ولأن الأمر كذلك، فإن السيناريوهات المتوقعة لهذه الألعاب لا تخاطب العين فقط، كما هي الحال في الألعاب المتداولة.

إذ تصمّم هذه الأخيرة التي تقدم الناشئة على شرائها بشراهة استهلاكية لا مثيل لها، على نحو يتبارى اللاعب مع الكومبيوتر ليسجل فوزاً سهلاً أو صعباً في امتحان قد لا تتجاوز مدته دقائق قليلة. كأن يطارد، على سبيل المثال، الحيوانات المفترسة في الأدغال، فإما أن ينجح في الدفاع عن نفسه وإما أن يفشل فيموت. قس على ذلك آلاف الألعاب التي تخضع لهذه المعادلة التي تتطلب سرعة التحرك والمهارة في استخدام التقنيات، غير أنها لا تفترض أبداً وعياً ثقافياً وقدرات استثنائية على معالجة المواقف الصعبة والمفاجئة والتصرف بحنكة وفقاً للظروف المداهمة.

هذه باختصار الكيفية التي تعمل بها ألعاب الفيديو بأشكالها الكلاسيكية. ما هي طبيعة التقنيات التي أدخلت عليها وغيرت وظيفتها على نحو لا تعود مدعاة لاستهلاك الوقت مجاناً بين اللاعب وشاشة الكومبيوتر؟

أولى التقنيات المستخدمة، على هذا الصعيد، هي أنه أصبح لدى اللاعب هامش أوسع من الحرية في اختيار الخطط والاستراتيجيا والمقاربات الدفاعية والهجومية. وهذا يعني، بالضرورة، أن لعبة تنتمي إلى هذه الفئة من الذكاء الاصطناعي أو الافتراضي، لا تعود خاضعة لبرنامج بسيط ينتهي بالفوز أو الخسارة. المسألة أكثر تعقيداً بحيث أنه بمقدور اللاعب أن يختبر قدراته الذهنية بأن يطلب

من الكومبيوتر تزويده بالنموذج الأصعب لهذه اللعبة أو تلك تماماً كما هي الحال في المواقف الحقيقية التي يتوقعها في الحياة اليومية. على سبيل المثال، يواجه اللاعب مأزقاً محدداً كأن يفاجأ بلص في منزله على وشك أن يلحق الأذى به. ولأن الموقف ينطوي على كيفية الاستعانة بالذكاء الاصطناعي، فأنَّ اللاعب لن يتوقع إلحاق الهزيمة التلقائية بهذا اللص، لأن هذا الأخير يتمتع بالذكاء الافتراضي عينه. فقد يكون يقظاً إلى درجة أنه قد يسمع الأصوات الهافتة الصادرة من صاحب المنزل، كالتنفس، أو تلك الناتجة عن احتكاك ما، أو حتى رنين الهاتف وسواها. وقد يعمد اللص إلى تغيير استراتيجيته بحيث يفرّ من النافذة ليعود فيدخل من نافذة أخرى، أو قد يختبىء تحت السرير أو في الخزانة بانتظار أن ينقض على صاحب المنزل، فالهامش المعطى لهذا اللص، على مستوى حرية الحركة والتفكير والتصرف، لا يقل أهمية عن مثيله لدى صاحب المنزل. وبناء عليه يتحول هذا الموقف الخطير معركة قاتلة بين هذا وذاك، ينتصر فيها الأكثر دهاء والأقدر على لجم انفعالاته.

إذاً خرجت ألعاب الفيديو عن كونها وسيلة مفيدة لتسلية الأطفال وتنمية مداركهم العلمية والثقافية والتربوية والأخلاقية، مثل تأكيدها على التمييز بين الخير والشر والفضيلة والرذيلة والقانون والفوضى وغيرها من القيم، وتسود فيها راهناً قيم السوق، خصوصاً أنها في قبضة حفنة من الشركات العالمية الكبرى. ويجدر التذكير بأن الألعاب الإلكترونية هي سوق استهلاكية واسعة، يقدر مردودها المالي راهناً بنحو 100 بليون دولار. ولا يتردد البعض في وصفها بأنها هو أقرب إلى «غزو استعماري جديد». ولم تعد تأبه بأن تدفع الأطفال إلى احتراف لعبة الموت وما يرافقها من مظاهر العنف

والكراهية والعنصرية والإرهاب. وما يزيد تلك الألعاب خطورة إن مرجعياتها السياسية التي تحرك الأحداث والأبطال وتوقع الضحايا تبقى مجهولة بالنسبة إلى عالم الأطفال الخيالي[1].

إذاً، لم تبقَ الألعاب الإلكترونية بعيدة عن مسألة المهاجرين. وشهدت السنة الحالية موجة من الألعاب الرقمية التي تبدو، كما سيظهر لاحقاً، إنها تستهدف شحن النفوس ضد هؤلاء المقتلعين من أوطانهم والمشردين تحت آفاق مجهولة.

ففي أميركا مثلاً انتقلت قضية المهاجرين من إطارها الاحتجاجي السلمي الديموقراطي إلى ساحة أخرى افتراضية. وتحولت عبر ألعاب الفيديو على شاشة الإنترنت إلى نسخة منقحة عن «لعبة الحرب» (وهذه من المصطلحات الأثيرة لدى الرئيس الأميركي جورج بوش) التي تخوضها واشنطن ضد الإرهاب. إنها لعبة أميركية بامتياز. أبطالها أميركيون. وأسلحتها أميركية، والغاية حماية أميركا من أي تسلل عبر الحدود. ويتجسد أعداؤها هذه المرة في المكسيكيين، الذين لا يبدو أن علاقات الجيرة كانت كافية لإنقاذه من عنصرية بعض صناع الألعاب الافتراضية.

وقد حملت تلك اللعبة عنواناً لافتاً: «بوردو باترول» Border Patrol، وترجمتها «دورية حماية الحدود». تفتح اللعبة على علم المكسيك بألوانه الثلاثة الأخضر والأبيض والأحمر. وتبدأ بمجموعة من الأوامر والتعليمات: «أطلقوا النار على المكسيكيين الذين يدخلون الولايات المتحدة بصورة غير شرعية... اصطادوهم كما نصطاد

(1) علي حويلي، الحياة 18 ـ 6 ـ 2006.

الأرانب... احصلوا على الحد الأقصى من النقاط حين تقتلون امرأة حاملاً مع طفلين صغيرين...».

بهذه النزعة الشوفينية العدوانية يجري استنفار اللاعبين الذين سرعان ما يعلو صراخهم ويمتزج بأزيز الرصاص وأنين الضحايا والصيحات الهستيرية الرافضة للهجرة. أما القائد المجهول فلا ينثني عن توجيه الأوامر الصارمة إلى جنوده «البواسل» «لا تدعوا أحداً يعبر الحدود، وبأي ثمن». وتنكشف ساحة المعركة، وهي عبارة عن صحراء شاسعة ينتشر فيها نبات الصبار البري، شيئاً فشيئاً ليظهر حراس الحدود المزودون بأسلحة وعربات مصفحة وبكامل جاهزيتهم العسكرية، لإطلاق النار وقتل أكبر عدد من المتسللين، باعتبارهم الأهداف المطلوبة، لا فرق أن كانوا رجالاً أو نساء أو أطفالاً[1].

تشير غبريالا لوميس رئيسة الجمعية المتحدة للأميركيين من أصل أسباني «هيسبانكس»، إلى اعتقادها بأن «الذين اخترعوا هذا النوع من ألعاب الفيديو، يتصورون في خيالهم العدواني أن الإنسان المكسيكي ليس سوى شخص منحط ومهرب للمخدرات وخارج على القانون وإن قتله ومن معه من النساء والأطفال أمر مبرر طالما هو في خدمة الأمن الأميركي». وتضيف «إنها لعبة القتل الممنهج الذي يحول البشر إلى مجرد أشياء للعبث بها بمعنى أن القائمين عليها ينزعون عن الإنسان آدميته.. ويعتبر هذا العمل ذروة في الكراهية».

أما بيتر فورديري (أستاذ الاتصالات وعلوم الفلسفة في جامعة لوس أنجليس) فيرى «إنَّ لعبة «دورية الحدود» يمكنها أن تشكل

(1) المرجع السابق.

الخطوة الأولى إلى العنصرية علماً أن هذه اللعبة وضعت على شبكة الإنترنت في المواقع المخصصة للتمييز العنصري والتي تنعت المكسيكيين بأنهم «مرض وميكروبات سامة لا يتم الخلاص منهم إلا بإبادتهم أفراداً وجماعات»[1].

الصراع العربي ـ الإسرائيلي

ليس جديداً أيضاً القول إنَّ شفرة ألعاب الكومبيوتر وصلت إلى «ذقن» الصراع العربي ـ الإسرائيلي، الذي يهزّ منطقة الشرق الأوسط منذ عقود. وانتقل هو الآخر من واقعه الحقيقي إلى عالم الأطفال الافتراضي وأدخلهم في لعبة الحرب والسلم.

يذكّر عنوان لعبة الفيديو «صانع السلام»، بالكتاب الشهير الذي أصدره السياسي الأميركي من أصل لبناني فيليب حبيب «ملعون صانع السلام». وقد أطلقتها أخيراً إحدى الشركات الإلكترونية الأميركية. وتعود فكرتها إلى الأميركيين آيه سي بوراك وأريك بنجامين المتخصصين في تصميم الألعاب الإلكترونية، واللذين يعتقدان بأنها «قد تسمح بالتوصل إلى حل افتراضي للصراع العربي ـ الإسرائيلي». ويعلّق ستيف سبولت من شركة electronic art على هذه اللعبة بقوله «إنَّ الألعاب الإلكترونية التي تتخذ من الواقع قاعدة لها وهدفها تعليمي أو ترفيهي محض لا يمكن أن تكون غالباً محط أنظار المستثمرين» ويضيف: «أن الألعاب التي توفق بين المتعة والتثقيف هي الأكثر جذباً لجمهور الأطفال»[2].

من هذا المنطلق يرى بوراك وبنجامين إنَّ الهدف من لعبتهما

(1) المرجع السابق.
(2) م.ن.

وثمنها نحو 500 دولار هو «تضييق الفجوة بين الترفيه والتثقيف من جهة وإتاحة المجال أمام الأطفال للإطلاع على قضايا العالم المعقدة من جهة أخرى والإسهام في حلها على طريقتهم الخاصة من جهة ثالثة». ويؤكدان أنهما تلقيا ردود فعل إيجابية على ما تتضمنه اللعبة من أحداث ووقائع وحوار قياساً إلى ما تقدمه الألعاب الأخرى من قتل وتدمير وعنف.

تمثل اللعبة في إحدى أكثر جوانبها إثارة ما يدور من حوار بين اللاعبين حول الأبعاد التاريخية والسياسية للجانبين الفلسطيني والإسرائيلي ومسائل الحرب ومفاوضات السلام والاجتماعات التي تعقد بين الحين والآخر واتخاذ القرارات التي يجري الالتزام بها تارة ونقضها تارة أخرى مع ما يتخلل العرض من بعض أعمال العنف المتبادل من كلا الجانبين. وعلى اللاعبين في النهاية أن يختاروا الشخصية الأفضل، رئيس وزراء إسرائيل أو رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية[1].

إذا كانت لعبة «صانع السلام» الأميركية لم تتوصل إلى أي حل نهائي للصراع الفلسطيني ـ الإسرائيلي وبقي معلقاً في العالم الافتراضي، فأنَّ لعبة الفيديو اللبنانية أو «لعبة التحرير»، واءمت على أيدي المقاومة، في شكل مطلق بين العالمين الافتراضي والحقيقي معاً. بمعنى أنها حققت في كليهما نصراً ساحقاً على العدو الإسرائيلي وأرغمته على الانسحاب من دون قيد أو شرط وحررت أرض الجنوب من جنوده وعملائه.

هكذا تبدو «لعبة التحرير» التي يتداولها اليوم أطفال لبنان

(1) المرجع السابق.

والعالم العربي وهي واحدة من أكثر الألعاب انتشاراً في أوساطهم ويباع منها آلاف النسخ سنوياً. فهي تتضمن وقائع عسكرية تجسد تضحيات رجال المقاومة وجرأتهم في التصدي لجنود الاحتلال وهم يدمرون آلياته ويهاجمون مواقعه ويحتلونها واحداً تلو الآخر ويرفعون عليها أعلام المقاومة ويحملون ما خلفه العدو من غنائم.

واحتفاء بالنصر يتخلل فيديو «لعبة التحرير» الكثير من المشاهد التي يشير بعضها إلى المواقع المحررة كسجن الخيام وبعضها الآخر إلى بوابة فاطمة التي أصبحت مزاراً يتقاطر إليه اللبنانيون والعرب في مناسبة التحرير أو غيرها[1].

في تحقيق[2] مطول كتب محمد عنتر يقول إنَّه من يقصد متجراً لبيع السي دي سيلتقي أطفالاً يدخلون المتجر لشراء ألعاب مصنفة للشباب ما فوق 18 عاماً. بلا حسيب أو رقيب. ويمكن أن يعاني الأهل والأطفال مشاكل كثيرة بسبب هامش الحرية الواسع المعطى للطفل في اختيار ألعاب الفيديو. فكم مرة كافأ الأهل أبناءهم وأهدوهم لعبة فيديو اختاروها عشوائياً أو بطلب منهم من دون أن يتعرفوا ويطلعوا على مضمون اللعبة وما يداخلها من سم وعسل؟

موت حقيقي

المخاطر الكبرى تأتي من التطور الهائل في تقنيات الكمبيوتر وأجهزة الفيديو آخرها X60 التي حولت الألعاب من ألعاب برسوم بسيطة وألوان غير متناسقة ومؤثرات معدومة، إلى ألعاب مذهلة

(1) المرجع السابق.

(2) محمد عنتر، البلد 3 ـ 2 ـ 2006.

تشابه الواقع، إلى حد ما. مثل: جي تي أي سان اندرياس GTA: San Andreas أو ذا بانشر The Punisher.

التطور في البرمجة أوجد ألعاباً تحتوي على تفاصيل كثيرة بمؤثرات صوتية عالية التقنية. والشخصيات التي أصبحت تشبه مثيلها في الواقع إلى حد كبير. وبات بالإمكان رسم شخصية تعرج حينما تصاب في رجلها والدم ينزف على الأرض. أو رؤية اللاعب وهو يحزّ سكينه على رقبة عدوه فيما يجهش بالبكاء طالباً الرحمة كما في لعبة مان هنت Man Hunt. أو حتى تقطيع أجساد الجنود لأجزاء صغيرة تتطاير مدماة بفعل قوة الشفرتين المركبتين في يدي امرأة بلو دارين Blood Rayne.

وقد برزت على ساحة ألعاب الفيديو شركات عملاقة برؤوس أموال ضخمة تعمل في إنتاج ألعاب بمؤثرات فيديوية وصوتية مميزة. مثل: Eidos - THA - EAzamez - Rochstar - Activision... ولكن إلى أي حد تراعي هذه الشركات المشاعر الإنسانية؟ خصوصاً لدى الأطفال المرفهين في أحاسيسهم في العادة. باختصار يمكن القول إنَّ هذه الألعاب تحرض الأطفال والمراهقين على العنف والقتل وحتى على الانتحار.

ألعاب جنسية

ترفض شركات الألعاب الاتهامات الموجهة ضدها لأنها ـ حسب رأيها ـ تقدم ما يطلبه شباب هذا العصر. أي على طريقة «الجمهور عايز كده». فحتى الأولاد الصغار يرفضون ألعاباً بسيطة مثل ماريو Mario أو سونيك Sonic. وهم بحاجة لألعاب فيها الكثير من التشويق والإثارة.

سباق الموت أو Death Race من صنع Exidy سنة 1976. كانت من أوائل ألعاب الفيديو التي تحرض على العنف. فاللعبة تشير إلى أن دهس الناس بالسيارات أصبح رياضة وليس جريمة يعاقب عليها القانون. أدهس كل من يتسكع في الشارع وستربح.

وظهرت في العام 1982 لعبة مجهولة المصدر هي كسترز ريفنج Custer's revenge وأحدثت هذه اللعبة صدمة في المجتمع الأميركي. فاللاعب يأخذ دور جندي أميركي عار في العام 1800 عليه أن يغتصب امرأة عارية من الهنود الحمر مربوطة في الصحراء. وليحقق مراده ويربح عليه أن يتجنب الأسهم المتساقطة من أبناء جنسها.

في العام 1995 أنتجت شركة Sierra Online لعبة فانتازمغوريا Phantasmagoria التي احتوت على مشاهد اغتصاب عنيفة وفتيات مقطوعة رؤوسهن ومضرجات بالدماء.

القرن الواحد والعشرون

من أكثر الألعاب التي أحدثت صدمة على مستوى العالم وفي مجتمعنا العربي هي سلسلة ألعاب غراند تفت أوتو Grand Theft Auto ذات الأجزاء الخمسة من إنتاج Rockstar. فاللاعب يتحكّم بشخص قادر على سرقة السيارات والدراجات النارية. وفي الإصدار الأخير للعبة يستطيع اللاعب سرقة الطائرات المدنية أو العسكرية أو القوارب البحرية. بالإضافة إلى مختلف الآليات العسكرية من دبابات وشاحنات. تقوم مهمة اللاعب على تنفيذ مهمات لمجرمين للحصول على أموال كثيرة. والمهمات متعددة وتتراوح بين المقامرة أو القتل أو الملاحقة أو الابتزاز بتصوير شخصية مرموقة في وضعية غير لائقة (مع امرأة). والأموال التي يحصل عليها اللاعب قابلة للصرف

أما على النساء في الحانات أو المقامرة بها أو شراء أسلحة متطورة للتفنن في القتل والتدمير مثل قاذفات الـRPG أو القنابل الحارقة أو بندقية قناص مع كاتم للصوت وغيرها من الأسلحة المتوفرة في «السوق السوداء» للعبة.

ويمكن للاعب أن يضرب عناصر الشرطة أو المارة وأن يقتلهم متى شاء باستخدامه أي سلاح متوفر. وإذا لم يتوفر فدهساً أو ضرباً.

ويتمتع اللاعب بخاصية جذب النساء وبخاصة في الجزءين الثالث والرابع حيث بإمكانه أن يزيد من طاقته إذ أوقف سيارته الفخمة بجانب إحدى السيدات المثيرات في الشارع. إشارة واحدة من ذلك اللاعب وستصبح تلك المرأة إلى جانبه في السيارة.

ألعاب إنسانية

في شهر أيار 2005 أطلقت الأمم المتحدة أول لعبة فيديو «إنسانية» من إنتاجها وهي لعبة افتراضية تتصور مجموعات من طائرات تلقي بالأغذية فوق مناطق الأزمات في العالم، إلى جانب مجموعات من شاحنات تتقدم بجهد على الطرقات الوعرة المعرضة لوابل نيران قوات المتمردين لتحمل إمدادات الغذاء والمؤن الملحة لمكافحة الجوع في هذه المناطق.

وبالنسبة إلى الأمم المتحدة تشكل هذه اللعبة المسماة «شرطة الغذاء» قصة نجاح لا سابقة لها.

ويقول مدير برنامج الغذاء العالمي في الأمم المتحدة جاستن روش «إنَّ اللعبة كانت ولا تزال النواة والدليل على ازدهار شبكة من صناعة» ألعاب الفيديو الجدية، «فهناك اليوم ما يقارب 4 ملايين

لاعب لها في كافة أنحاء العالم ويتحمس لها بشكل خاص قطاع واسع من الأولاد بين 8 و14 عاماً في نحو 200 دولة. وهي أرقام فاقت كل التوقعات»، مضيفاً أنه «ليس من لعبة أخرى من هذا النوع شهدت مثل هذا النجاح من حيث مدى انتشارها وعدد اللاعبين المتحمسين لها».

وكان برنامج الغذاء العالمي قد أجاز وضع اللعبة على شبكة الإنترنت منذ نيسان 2005 تحت اسم الموقع. ما يسمح للراغبين في اللعب بها بإنزالها مجاناً على أجهزة الكومبيوتر وذلك بهدف إطلاع أكبر عدد ممكن من العناصر الشابة على مشكلة الجوع العالمي وعن الأعمال والنشاطات التي تقوم بها المنظمات الإنسانية لمكافحة هذا الجوع.

ويواجه اللاعبون في «شرطة الغذاء» عدداً من التحديات الواقعية لإيصال إمدادات طارئة وملحة من الغذاء إلى الآلاف من الأشخاص المتواجدين على جزيرة شيلان الافتراضية، فيقودون المروحيات في مهمات استكشافية، ويفاوضون المتمردين المسلحين بشأن عبور قوافل المساعدات الغذائية واستخدام الغذاء مقابل المساعدة في إعادة إعمار القرى المهدمة. لكن قبل كل مهمة، يتوجب على اللاعب الإطلاع على فيديو يفسر له حقيقة عمل برنامج الغذاء العالمي على الأرض ويعلمه كيفية تعامل البرنامج مع الاحتياجات الحالية الطارئة للغذاء، ومن أين تأتي المساعدات الغذائية وكيف يتم تصنيفها وتسليمها إلى المناطق المحتاجة.

وقد تمت مؤخراً ترجمة اللعبة إلى أربع لغات لتصبح لعبة عالمية النطاق على صورة البرنامج العالمي للغذاء. فبعد أن صدرت اللعبة باللغات الإنكليزية واليابانية والإيطالية، ثم بالبولندية في نيسان من

هذا العام، يجري العمل حالياً لإصدارها في وقت قريب باللغات المجرية والصينية والفرنسية واليونانية والهندية والعربية.

لكن المسؤولين عن برنامج الغذاء العالمي لمن لن يكتفوا بهذا «الانتصار»، كما يؤكد مدير الاتصالات في البرنامج نيل غالاغر الذي يعتبر أن «اللعبة لن تصمد طويلاً أمام سرعة الازدهار الساطع لصناعة الألعاب، وستصبح لعبة بالية، لذلك فإن العمل جار حالياً لإصدار لعبة فيديو جديدة موجهة للبالغين».

ويقول: «إنَّ المزج بين التكنولوجيا المتقدمة لصناعة الألعاب وبين مغامرات وتحديات الحياة الحقيقية على أرض الواقع يبشر بإمكانية طرح عرض واسع من الألعاب الذكية الممتعة عقلياً التي تجمع بين الحركة والتفكير والتوعية وترضي نهم اللاعبين للتعرف إلى العالم الحقيقي للعمل الإنساني، وللعاملين إلى إيصال المساعدات الغذائية إلى الشعوب الفقيرة في كافة أنحاء العالم.

وفي 2006/9/26 فازت لعبة الكترونية من صنع الأمم المتحدة بأرفع جائزة نمساوية لألعاب الكومبيوتر وفاقت مبيعاتها مبيعات أسطوانة مدمجة عن حياة الموسيقار النمساوي الشهير موزار.

تهدف اللعبة إلى الترويج لمواقف إيجابية من اللاجئين عبر نقل اللاعبين بين دهاليز مخاطر عمليات الفرار ومحاولات القمع التي يتعرض لها الهاربون من بلادهم طوعاً أو قسراً ومصاعب اللجوء وغير ذلك من المصاعب التي تواجه كل اللاجئين من أفراد وجماعات لأسباب مختلفة.

واللعبة فازت بجائزة الحكومة النمساوية للألعاب الإلكترونية التثقيفية تحت فئة «المعرفة والتعليم»

ومنحت الجائزة لجنة من 14 خبيراً من الجامعات النمساوية والقطاعين التجاري والإعلام في النمسا وفي حضور نحو 400 مندوب عن مختلف هذه القطاعات. وأشادت اللجنة بواقعية اللعبة وتصميمها وقالت «إنها تنقل بامتياز معاناة اللاجئين ولا تتوجه فقط للمراهقين بل أيضاً للبالغين لتجبرهم على إعادة النظر في مواقفهم من اللاجئين».

واللعبة التي أطلقت في الدول الناطقة باللغة الألمانية تعرف اللاعبين بها على التجارب التي يمر بها ملايين اللاجئين من فرارهم من منازلهم وصراعهم مع ثقافات جديدة ولغات جديدة في أراض أجنبية غريبة. ومن بين السيناريوهات المختلفة يتوجب على اللاعبين التغلب على المصاعب التي تواجههم كلاجئين خلال فرارهم من بيوتهم وقراهم وبلادهم ويحثهم عن أي مساعدة ممكنة لهم مع الحفاظ على أمنهم وسلامتهم. كما عليهم منذ وصولهم إلى بلاد اللجوء التغلب على مصاعب الدخول إلى مدارس جديدة وتعلم اللغة وكسب أصدقاء جدد ومواجهة التمييز العنصري والعرقي في الشوارع وفي طلب الحصول على وظائف وغير ذلك من المصاعب الأخرى التي تواجههم للبدء في حياة جديدة تماماً.

وللّعبة نسخة باللغة السويدية وأخرى بالنيروجية وتأمل مفوضية اللاجئين ترجمتها قريباً إلى لغات أخرى منها الدنمركية والإنكليزية بهدف الترويج لها في مختلف أنحاء أوروبا والعالم وتعريف كافة الشعوب على الواقع الذي يعيشه اللاجئون. كما تضم اللعبة أيضاً مقابلات حية مع لاجئين حقيقيين وتورد شهادات وروايات حول تاريخ اللجوء إلى أوروبا وتفسيرات عن المصاعب التي يواجهوها في أوروبا حالياً.

وأشارت المفوضية إلى أنه تم تنزيل اللعبة على الموقع المذكور أعلاه منذ إطلاقها وحتى اليوم 120 ألف مرة بالإضافة إلى تلقي الموقع لشهادات دعم حماسي من قبل الشباب والأساتذة والأعلام في كل من ألمانيا وسويسرا والنمسا.

مع وضد

أجرى العديد من علماء النفس والمهتمون بشؤون الألعاب والكمبيوتر دراسات مستفيضة لبحث إشكالية العنف في ألعاب الفيديو، وانقسم هؤلاء بين مؤيد للعنف فيها وبين رافض لها.

إنَّ الطبيعة التفاعلية لألعاب الفيديو تشوهت إلى حد يصعب من خلاله التمييز أو فصل الخيال عن الحقيقة وبالتالي، فأنَّ ممارسي هذه الألعاب معرضون للإصابة - أكثر من غيرهم - بقلق نفسي عميق كنتيجة طبيعية للمناظر العنيفة التي يرونها ويتفاعلون معها.

وفي دراسة شاملة أعدها علم النفس الأميركي (Chapmoan, J) شابمان في نيسان 2000، وجد أن الطبيعة التفاعلية لألعاب الفيديو تروج للعنف والعدوان في العالم الحقيقي، خصوصاً على الأولاد المراهقين.

كما توصل عالم النفس الأميركي (Dietz.T) ديتز في العام 1998 إلى أن الجنس. التمييز العنصري. والتشجيع على العنف هو ما تشترك فيه ألعاب الفيديو. وإنَّ هذه المواضيع تؤثر سلبياً على الأطفال إلى حد أنها تنعكس في حياتهم الشخصية وتصرفاتهم اليومية في العالم الحقيقي.

توصل كل من روسو وتوياما في العام 2001 وسبقهم د. هايبر في العام 2000 في الدراسات التي قاموا بها، إلى أن العنف في ألعاب

الفيديو ليس حقيقياً. بتعبير آخر، إذا دفعت شخصية اللعبة لارتكاب عمل عنفي في الكمبيوتر أو PS أو X-Box. فاطمئن لأن أحداً لن يلاحقك بتهمة التحريض على القتل أو القتل في العالم الحقيقي. وبالعكس، لو تعرضت الشخصية التي أنت متحكم بها في اللعبة لإطلاق نار من الخصم أو ربما القتل، لن يعاقب المرتكب على الجريمة التي اقترفها لأنه ببساطة ليس حقيقياً. ويشير علماء النفس إلى العنف موجود في حياتنا اليومية، وليس للتعابير الفنية في ألعاب الفيديو أي انعكاس على طبائع الأفراد الممارسين لها.

ويرى الصحافي المتخصص في شؤون الكمبيوتر (Murphy,K) ك. ميرفي أن ممارسي ألعاب الفيديو قادرون على التمييز بسهولة بين العالم الخيالي العنيف والعالم الحقيقي. أما انتشار هذه الألعاب في صفوف الشباب والأولاد فيرجع برأيه. إلى أن الشركات المنتجة تبالغ في إنشاء بيئة عنيفة وهمية لتتناسب ورغبات جمهورها المتزايد، الذي يطالب بقصة مرغوبة وذات معان ومفاهيم واضحة أي قريبة من الواقع. وبالنسبة إلى مخاطر الإدمان على ألعاب الفيديو العنيفة. فإن ميرفي يرفض الأمر تماماً ويقول: «لا ينبغي النظر إلى مدمني ألعاب الفيديو كأفراد مختلفين عن مدمني جمع الطوابع، فلكل فرد الحق في اختيار الهواية التي تتناسب وطبعه أو مزاجه».

ويتفق معه في الرأي الباحث في شؤون الكمبيوتر (Work, M) م. وارك. ويشدد على ضرورة تعاطي المجتمع بإيجابية مع واقع ألعاب الفيديو بدل أن يتسم برعب أخلاقي خوفاً منها. ويؤكد وارك أن أية محاولة لتقييد هذه الألعاب ستبوء بالفشل طالما أن نوعيتها تستهوي أعداداً متزايدة من الشباب.

الأهل ينافسون الأبناء

لم تعد ألعاب الفيديو حكراً على الأطفال وإنما أصبحت أكثر رواجاً بين أولياء الأمور، لذلك تقدم بعض الباحثين في الشؤون الاجتماعية باقتراح يقضي بالترويج لها كأداة لترابط أفراد الأسرة. وكشف البحث الذي أجرته «جمعية برامج الكومبيوتر الترفيهية» في الولايات المتحدة أن 35 في المئة من الذين شملهم البحث، أي واحد بين ثلاثة أولياء أمور، لا يتوانون عن الانغماس في ألعاب الفيديو وأن 80 منهم يشاطرون الأبناء اللعب.

ويقضي «اللاعبون من أولياء الأمور» قرابة 19 ساعة في المتوسط شهرياً في ممارسة ألعاب الفيديو، نصف ذلك الوقت بمشاركة الأبناء، ويعتقد ثلثا المشاركين في الدراسة أن الألعاب وطدت أواصر العلاقة بين أفراد العائلة، وفق ما جاء في موقع «سي أن أن» الإلكتروني.

وقال أندرو باب، مؤسس الموقع الإلكتروني «غايمر داد دوت كوم» الذي يستعرض أحدث ألعاب الفيديو ويقدم تقويماً لها كما يفرد ساحة نقاش لأولياء الأمور: «الأطفال سيلعبون، ومن الأجدى للآباء المشاركة عوضاً عن الجلوس جانباً».

وأوضح البحث أن ممارسي ألعاب الفيديو من أولياء الأمور تجاوزوا سن السابعة والثلاثين ونصفهم من النساء، وأن 23 في المئة منهم دخلوا عالم الألعاب الترفيهية في الوقت نفسه مع الأبناء.

وقال 75 في المئة من أولياء الأمور الذين شملهم البحث أن

حماية الأطفال من ألعاب الفيديو التي تشجع العنف لا تقع على عاتق الحكومة. وشمل الاستطلاع 501 أسرة يراوح سن أطفالها ما بين الثانية والسابعة عشرة[1].

(1) الحياة 29 ـ 1 ـ 2006.

نصائح

شروط المشاهدة

1 ـ طفل عمره سنتان على الأكثر:

أوصت «الأكاديمية الأمريكية لطب الأطفال» بعدم مشاهدة أطفال هذه السن للتلفزيون بتاتاً. وذلك للأسباب التالية:

ـ أولاً، في هذه السن يتعلم الأطفال الكلام، ويبدأ الفص الأيسر لمخ الطفل في التمايز عن الفص الأيمن، ومشاهدة التلفزيون تتدخل في هذا التغيير.

ـ ثانياً، في هذه السن يكتشف الطفل العالم من حوله عن طريق حواسه ومن خلال اللعب، فيتطور مخه وتنمو مساراته، والطفل الذي يشاهد التلفزيون لا يلعب ولا يستحث الكثير من أحاسيسه.

ثالثاً، في هذه السن عندما يتعامل الطفل مع العالم الخارجي، يبدأ في إدراك أنه كائن منفصل عن أمه وعما حوله، كما يدرك استقلال ذاته جسماً وإرادة. ومشاهدة التلفزيون لا تعطي فرصة لهذه الأحداث أن تتكون.

وفيما يأتي بعض الاقتراحات العامة التي يجب أن يتعامل الآباء والأمهات (أو من يتولى أمر الطفل) على أساسها مع طفلهم في هذه السن:

1 ـ أن يكثر الآباء والأمهات من الحديث مع طفلهم الرضيع، على الرغم من أنه لا يفهم ما يقولون، ولكنهم عندما يتكلمون معه يجب

أن يتعاملوا معه على أنه يفهم، فيوجهون إليه الأسئلة، كما يكون عليهم أن يحاولوا شد انتباهه من خلال أشياء جذابة تضفي عليه البهجة، وهو ما سيؤدي بالطبع إلى تفاعله مع نبرات صوتهم، بحيث يدرك وجودهم، ويشعر باهتمامهم وبحبهم، فيكون لذلك أعظم الأثر عليه وعلى معدلات نموه.

2 ـ أن يغني الآباء لأطفالهم، فقد ثبتت أهمية الغناء الموجه من الأهل إلى الأطفال، وهو ما عرفه أهلنا في الماضي، فامتلأ التراث بأغان لم نعد نسمع بها الآن.

3 ـ على الآباء كذلك أن يتواصلوا بصرياً مع الطفل، وذلك لأن هذا التواصل يعمل على التنبيه المباشر والاتصال الحميم الباعث على الثقة والشعور بالأمان.

4 ـ أن يدلك الآباء جسد الطفل ووجنتيه، ورجليه وذراعيه لإثارة أحاسيسه، ومساعدة مخه على النمو على نحو طبيعي.

5 ـ أن يلمسوا جسم الطفل بالحرير الناعم والصوف الخشن، وذلك لتحفيز أحاسيسه وزيادة قدرته على التمييز.

6 ـ أن يلعب الآباء مع الطفل ألعاباً تناسب عمره، وكذلك تشجيع الطفل على القيام بالأنشطة التي من شأنها تطوير إحساسه بذاته.

7 ـ أن يضعوا في غرفته أو في سريره اللعب المتحركة التي تسمى موبايل mobile، فحركتها تشد انتباهه وتساعد مخه على التطور، خصوصاً إذا كانت صارخة الألوان، ويمكن كذلك وضع صور ملونة متحركة أمام عينيه بدلاً من تلك الألعاب.

8 ـ وأخيراً، يجب على الآباء أن يعلموا الطفل كيف يسلي نفسه بنفسه. فعليهم ألا يحملوه أو يهزوه دائماً، فالرضيع الذي أكل

وقضى حاجته يحتاج إلى أن يتعلم كيف يسلي نفسه، ولو لفترات قصيرة ومتقطعة.

2 ـ الأطفال الذين تتراوح أعمالهم ما بين سنتين و6 سنوات.

توصي الهيئات العلمية بألاّ يشاهد أطفال هذه المرحلة السنّيّة التلفزيون، وألا يلعبوا ألعاب الفيديو والكمبيوتر لأكثر من ساعة واحدة أو ساعتين على الأكثر يومياً، وذلك ليعطوا وقتاً كافياً للنشاطات الأساسية (مثل اللعب)، ولينالوا وقتاً للفراغ. وتستند هذه التوصيات إلى خطر تدخل التلفزيون في التيارات الثلاثة الأساسية التي تؤثر في نمو الأطفال وتطورهم في هذه المرحلة السنية، وهي:

1 ـ إدراك الأطفال أن لهم ذاتاً منفصلة عن أمهم وعن بيئتهم المباشرة، ورغبتهم من ناحية في إثبات هذه الذات، ومن ناحية أخرى رغبتهم في إيجاد طريقة جديدة للتواصل مع أمهم ومع أفراد بيئتهم المباشرة. ويكمن خطر التلفزيون في أنه يرتد بالأطفال إلى حالة سلبية ويمنع تطورهم الاجتماعي.

2 ـ بدء الأطفال في تكوين الجمل والعبارات ليعبّروا عن هذه الذات التي أدركوها لتوهم، وليعبروا عن علاقاتهم بعالمهم، فالتعبير اللفظي من أهم سمات هذه السن. ويكمن خطر التلفزيون في أنه لا ينمي في المشاهد الصغير مهاراته في التعبير عن نفسه لفظياً، ومن ثم لا ينمي ويطور من الفص الأيسر للمخ.

3 ـ رغبة الأطفال في اكتشاف كل ما يستطيعون اكتشافه عن بيئتهم المباشرة وغير المباشرة، وعن طريق تلبية الرغبة يستعملون عضلاتهم وحواسهم وينمون مخهم ويطوّرونه. وخطر التلفزيون

يكمن في أنه لا يساعد المشاهد الصغير على استعمال عضلاته أو أحاسيسه، وهو ما يعني أنه لا ينمي مخه أو يطوره.

ما العمل تجاه طفل هذه المرحلة السّنّية التي يفرط في مشاهدة التلفزيون؟

هذه مرحلة صعبة في العلاقة بين الأم (أو من يقوم بدورها) وابنها، فالابن يسعى لتكوين ذات مستقلة، والأم (وقد اعتادت على التعامل معه بوصفه قطعة منها) تحزن لانفصاله عنها، وربما تحارب (من دون أن تدرك أنها تفعل ذلك) تكوينه هذه الذات المستقلة المنفصلة عنها. إنه يقول: لا، ويثور لأنه يريد إثبات ذاته، فتعتقد أنه يعاندها، فتحاول كسر هذه الذات بدلاً من أن تعاملها باحترام، وأن تعلمها مراعاة حدودها وحقوق الآخرين. أما التلفزيون فإنه يهدىء الطفل ويجعله مطيعاً (وهذا يرجع بالطبع إلى أنه يزيد من سلبيته)، وهذا يعجب الأم لأنه يعطيها وقتاً للراحة، أو للقيام بأعمالها الأخرى، تاركة ابنها أمام التلفزيون.

إذا عرفت الأم بمضار التلفزيون، وحاولت في هذه الظروف منع طفلها من الإفراط في مشاهدته، فإنها تجد ابنها يصرخ ويبكي (لأن التلفزيون يجعله كسولاً في التعبير عن نفسه بالكلام)، ويحاول أن يملي إرادته بالقوة (لأنه يمر بحالة إثبات ذاته)، كذلك تجد الأم نفسها بحاجة إلى أن تتمرن على طريقة جديدة تعامل بها ابنها، طريقة ترتكز على احترام ذاته من دون الخضوع لصراخه وبكائه، إنها معادلة صعبة تتطلب من الأم (أو من يقوم بدورها) كل الصبر والذكاء واللباقة.

كيف تتفاعل الأم مع ابنها عندما يحاول بالقوة والصراخ إملاء إرادته لمشاهدة التلفزيون؟

أولاً: عليها أن تتعامل معه بهدوء، من دون أن تنزلق معه إلى ساحة الصراخ والصوت العالي، بل تأخذ هي بيديه إلى ساحة الهدوء والعقل.

لا تطلب منه أن يهدأ (فهذا الطلب لا يجدي) ولا تهدده (حتى لا تصعد الموقف). الأفضل أن تطلب منه أن يأخذ نفساً عميقاً: «نفس عميق»، «مرة ثانية، نفس عميق»، هكذا أربع مرات أو خمساً، وبعدها سيهدأ فعلاً. بهذه الطريقة تكون قد ساعدت في تكوين اتصالات ما بين مخه الجديد ومخه القديم، وساعدت مخه الجديد على أن يهذب من التصرفات البدائية التي تصدر من مخه القديم (مثل الصراخ).

ثانياً: في هذه المرحلة، يجب أن تتعامل الأم مع ابنها بكثير من الحب والاهتمام والعناية، لتعوّضه عن الأمان الذي كان يناله من التلفزيون.

- إذا لم يكن الطفل قد أفرط في مشاهدة التلفزيون بعد، فإن حالته الطبيعية في هذه المرحلة تكفل له أن يكون قد أخذ ما يكفيه من حب وأمان في حضن أمه، وهو ما يمنحه الثقة التي يحتاج إليها للخروج إلى عالمه واكتشافه (عن طريق اللعب).

- أما إذا كان قد أفرط في مشاهدة التلفزيون، فإن التلفزيون يكون قد ولّد في الطفل أماناً يقترن بنوع من السلبية، يختلف عن الأمان المقترن بالثقة الذي يناله من الأم. في هذه المرحلة، يمكن لحب الأم وعنايتها واهتمامها أن تولد في الطفل الثقة التي يحتاج إليها بحيث يعود إلى الحالة الطبيعية ويصبح قادراً على اكتشاف عالمه.

ثالثاً: يجب أن تتعامل الأم مع ابنها بحزم، حتى لا يخلط بين حبها إياه وعدم الإفراط في مشاهدة التلفزيون. إذا أمرته أو وعدته بشيء فيجب أن تحافظ على كلمتها، فإن لم تحفظ ذلك الوعد، تكون قد هدمت ما بنته في معاملتها معه، وتكون قد جعلته يعتاد الإلحاح في طلباته حتى يضطرها إلى تلبيتها.

وفيما يأتي بعض الآراء والتوصيات التي تساعد الأهل في تلك الفترة الصعبة:

1 ـ على الأم والأهل عموماً، أن يتذكروا أن النشاط الأساسي للأطفال في هذه المرحلة العمرية يجب أن يكون اللعب. فعن طريق اللعب يستطيع الطفل إثارة حواسه وعقله، واكتشاف عالمه، وعن طريق اللعب يستطيع أن ينمو اجتماعياً وعاطفياً وعقلياً، كما يتعلم الصبر والدقة. فعلى الأم أن تشجع ابنها أن يقوم بأنشطة حركية؛ مثل قص الورق ولصقه، والتلوين، وعمل ألعاب الصلصال. في بداية الأمر سيسعى الطفل إلى أن تلعب أمه معه، وتدريجياً تعلمه أن يلعب مع الأولاد الآخرين.

2 ـ في هذه المرحلة السنية يبدأ الأطفال الأنشطة الفنية؛ مثل الغناء وتعلم النوتة الموسيقية، ففي كثير من بلدان العالم يتعلم أطفال لا يتعدى سنهم 3 سنوات لعب الكمان بطريقة «سوزوكي».

فالأنشطة الفنية مهمة جداً لأطفال هذه المرحلة، ومن المعروف أن تعلم الموسيقى في السن الصغيرة يساعد على تعلم الرياضيات، لأن هناك توافقاً في المخ بين المراكز المختصة بالموسيقى وبالحساب والرياضيات.

3 ـ في هذه المرحلة السنية يبدأ الأطفال الأنشطة الرياضية مثل السباحة، وألعاب الكرة، والألعاب التي تنمّي الجسم والعقل.

4 ـ يتعلم الطفل أن يقسّم وقته بين الأنشطة المختلفة، فهناك وقت للتلفزيون والكمبيوتر، ووقت للرياضة، ووقت للعب. ويجب ألا يستعمل الآباء التلفزيون بوصفه جائزة أو عقاباً للأطفال (فعلى الآباء ـ على سبيل المثال ـ ألا يقولوا: «إذا فعلت كذا، سوف أتيح لك فرصة مشاهدة التلفزيون»، أو «لأنك لم تعمل كذا فلن تشاهد برنامجك المفضل»). فهذا من شأنه أن يزيد من تعلق الأطفال بالتلفزيون. وعلى الآباء والأمهات استثارة أطفالهم بالأسئلة وهم يشاهدون التلفزيون، فيسألونهم عما يشاهدونه (مثل: هل لاحظت هذا أو ذاك؟ ألا يذكرك ما شاهدته بـ هل يعجبك...؟ ماذا فهمت من هذا البرنامج؟). هذه الأسئلة والملاحظات من شأنها خلق الاتصال الإنساني الذي يفيد الأطفال، كما أنها تحفز مخهم المفكر، وتجعلهم مشاركين نشطين فيما يشاهدونه.

5 ـ هناك منظمات تحث الآباء على الاستغناء عن التلفزيون نهائياً، وتنظم أسبوعاً لتمرين الآباء على ذلك، فتتعلم الأسرة كيف تكتشف طرقاً أخرى للتسلية. واستطاعت بعض الأسر إيجاد طرق للتحكم في مشاهدة التلفزيون؛ مثل: نقل جهاز التلفزيون إلى حجرة الآباء، أو تجنب مشاهدة التلفزيون إلا في عطلة نهاية الأسبوع عندما يكون الآباء والأبناء مشغولين بأنشدلة أخرى، فلا يجدون صعوبة في الاستغناء عن مشاهدة التلفزيون.

6 ـ يجب على الآباء قراءة الكتب لأطفالهم، من 10 إلى 15 دقيقة يومياً قبل النوم، ولمدة 15 أو 20 دقيقة على مدار اليوم. فهذا من شأنه تحفيز عقولهم وقدراتهم على التخيل، كما يشعرهم بالاهتمام والحب.

7 ـ يحتاج الأطفال إلى وقت فراغ يتعلمون كيف يملأونه

بأنفسهم، من دون اللجوء إلى التلفزيون للتسلية، ومن دون خوف من الشعور بالملل، فالقليل من الملل لا يضر الأطفال بل على العكس، فإنهم عندما يحاولون التغلب على الملل يصبحون أكثر إبداعاً.

8 ـ تحتاج الأم إلى أن تخصص وقتاً لنفسها بعيداً عن طفلها. إذا لم تخصص هذا الوقت، شعرت بأنها أصبحت مثل العبيد لطفلها، ووجدت نفسها مضطرة إلى أن تتركه أمام التلفزيون، حتى تجد وقتاً تقوم فيه بأعمالها الخاصة. الأفضل أن تعطي الأم لطفلها رعاية مكثفة لفترة محددة، فتقرأ له الكتب، وتلعب معه، وتعطيه كل ما يحتاج من حب وحنان، ثم تقول له: «الآن ماما ستكون مشغولة في كذا، والعب أنت كما تشاء».

9 ـ على الآباء إعطاء أبناءهم فرصة لنموهم الاجتماعي، وذلك عن طريق لعبهم مع الأطفال الآخرين، لكي يتعلموا المشاركة والعطاء، والاختلاف ثم الاتفاق بعد الوصول إلى حل مرض، والبعد عن الأنانية والعدوانية.

10 ـ في هذه المرحلة العمرية يمكن أن يحمل الآباء الأطفال القليل من المسؤوليات، فعلى سبيل المثال يعلمونهم أن يضعوا في المطبخ الكوب بعد أن شربوا فيه، وأن يساعدوا أمهاتهم في ترتيب الأسرة أو المنضدة، وأن يرتبوا لعبهم بعد الانتهاء من اللعب. فهذه المسؤوليات الصغيرة من شأنها تعزيز إحساسهم بذواتهم وتقديرهم أنفسهم.

11 ـ على الأطفال الذهاب إلى النوم مبكراً، وعدم مرافقة آبائهم لساعات متأخرة من الليل وهم يشاهدون التلفزيون؛ لأن الأطفال في

حاجة إلى أوقات الراحة التي يتلقونها أثناء النوم، وبالأخص في ساعات منتصف الليل حيث يكون متاحاً للنظام العصبي أن ينمو على أحسن وجه، حيث تفرز الهرمونات المتصلة بنمو الطفل.

12 ـ يحتاج الآباء إلى أن يعززوا في أولادهم الإحساس بالأسرة، وذلك عن طريق المشاركة في الأنشطة، وقضاء الإجازات سوياً، وتناول الوجبات معاً في إطار العائلة. فلا يصح إطلاقاً تناول الطعام أثناء مشاهدة التلفزيون، لأن هذا وقت خاص بالأسرة يجب استغلاله في التواصل ما بين أفرادها، وعلى التلفزيون ألا يقتحم ذلك الوقت الثمين.

3 ـ الأطفال الذين تتراوح أعمارهم ما بين 6 ـ 12 سنة

لقد خرج هؤلاء الأطفال لتوهم من المرحلة التي كانوا يكتشفون فيها العالم، مستخدمين حواسهم ومطورين الأجزاء الحسية الموازية لذلك في مخهم، بالإضافة إلى تطور عام وبصورة أكبر لعقولهم. والآن، وحيث أنَّهم يقرأون ويكتبون، فأنَّهم يطورون شق مخهم الأيسر أي الجزء الخاص بالتفكير اللفظي في مخهم، ويقوون بعض مسارات مخهم، ويحرقون المسارات التي لا تستعمل، لذلك يجب عدم تعريضهم للآثار المرضية التي تسببها المشاهد المكثفة للتلفزيون، علماً بأن «نافذة الفرصة» لغرس حب القراءة في نفوس الأطفال تغلق عند الثانية عشرة من عمرهم.

كثير من التوصيات لأطفال المرحلة العمرية (ما بين عامين وستة أعوام) ينطبق على أطفال المرحلة ما بين 6 و12 سنة، مع بعض التعديلات.

فالطفل في هذه المرحلة ـ على سبيل المثال ـ يكون قد بدأ لتوه

في تعلم القراءة، لذا يجب أن نحببه فيها عن طريق برنامج مدرسي يسمى أحياناً «كتاب في الحقيبة». في هذا البرنامج، يحضر كل طفل يومياً من المدرسة كتاباً ترفيهياً يقرأ فيه عدداً من الصفحات، ويوقع ولي أمره في مفكرة مدرسية خاصة على أن طفله قد قرأ حقاً هذا العدد من الصفحات.

وفي الأيام التالية يكمل الطفل قراءة الكتاب، ثم ينتقل إلى كتاب ثانٍ وثالث، وهكذا. ويجب أن تكون القراءة يومية ومكثفة في السن الصغيرة حتى نغرس في الطفل حب القراءة.

إذا لم يكن هناك برنامج قراءة يومية في مدرسة طفلك، فلماذا لا تضع أنت برنامجاً؟ يمكنك استعارة كتب من المكتبة، أو من الأصدقاء، أو يمكنك شراؤها. بعد مضي عام من هذا البرنامج، سوف تجد أن هواية القراءة قد نمت لدى طفلك وأصبحت محببة لديه.

يشجع أطفال هذه المرحلة العمرية على اكتشاف كثير من الهوايات، فيختارون منها الهوايات الأكثر ملاءمة لهم، وعلى الآباء تقييم كل نشاط يشترك فيه أطفالهم: ماذا سيكتسب الطفل منه؟ هل سيحل محل نشاط آخر؟ هل هذا النشاط أكثر أم أقل إفادة من النشاط الذي سيحل محله؟

وعلى الآباء أيضاً أن يشجعوا أطفالهم على ممارسة الرياضة، أو تعلم العزف على الآلات الموسيقية، حيث أنَّ ممارسة الرياضة أو العزف تستلزم تمارين طويلة من شأنها أن تعلم الأطفال الصبر والمثابرة.

لكل عمر مادة متخصصة

1 ـ المرحلة الأولى من الطفولة: تنتهي عند خمس سنوات تقريباً وهي مرحلة الواقعية والخيال المحدود بالبيئة.. ويصلح لها العرائس والأدوات الفنية المتعلقة بتمثيل الحيوانات والطيور.

2 ـ المرحلة الثانية من الطفولة: تبدأ من الخامسة إلى الثامنة تقريباً.. وهي مرحلة الخيال الحر.. ويصلح لها موضوعات الغابات والصحاري وقاع البحر وقمم الجبال.. إلخ.

3 ـ المرحلة الثالثة من الطفولة: وهي مرحلة ما بين ثماني سنوات والثانية عشرة من العمر ويطلق عليها مرحلة المغامرة والبطولة. ويصلح لها موضوعات خدمة البيئة والدفاع المدني والبطولات الرياضية والاستكشافات الجغرافية وفي عالم المجهر والمعامل.

ولكل مرحلة من هذه المراحل خصائصها وسماتها النفسية والاجتماعية والجسمية والوجدانية، ولها احتياجاتها وقدراتها.. ومن ثم فأنَّ لكل مرحلة برامجها ونصوصها وأشكالها الفنية المناسبة لها.

ولعل التوصيات التي صدرت عن ندوة برامج الأطفال في التلفزيون التي أقامها اتحاد إذاعات الدول العربية تختزل لنا أهم النقاط التي يجب أخذها بالاعتبار عند الحديث عن تحسين واقع برامج الأطفال في تلفزيونات الوطن العربي، وذلك من خلال الإنتاج العربي/المحلي، بحيث خرجت الندوة بمجموعة من التوصيات حبذا لو أخذ بعضها طريقه إلى التنفيذ من أهمها:

ـ أن تخضع برامج الأطفال في التلفزيون لتخطيط على المدى

البعيد والمتوسط.. وأن يكون التخطيط التلفزيوني متناغماً مع التخطيط الإذاعي والمناهج المدرسية، وأن تراعى ضرورة إشراك الخبراء التربويين مع المخططين التلفزيونيين في وضع خطة البرامج ومتابعتها.

- أن تحدد مرحلة العمل التي يتوجه إليها كل برنامج، أخذاً بالاعتبار المستوى الإدراكي اللغوي لكل مرحلة، وأن تراعي برامج كل مرحلة احتياجات الطفل ورغباته خلالها.

- أن يوفر لقطاع برامج الأطفال في الهيئات التلفزيونية المختلفة ما يتناسب مع أهميته من إمكانيات مالية وفنية وبشرية، وأن تقدم الحوافز للكتاب والمعدين والمقدمين على الإقبال والمشاركة في إنتاج برامج الأطفال.

- أن يكون حرص البرامج التلفزيونية على تنمية خيال الطفل.

- أن يعطى الاهتمام المناسب لقضية الشكل في برامج الأطفال، إذ لا بد لكي يحقق المضمون أهدافه، أن يتوفر للبرامج أكبر قدر من الجاذبية التي تستهوي الطفل.

- أن تحظى مسألة الاختيار في الإنتاج الأجنبي المقدم للطفل بأكبر قدر من الاهتمام حتى لا يضار الطفل مما يمكن أن تتضمنه البرامج الأجنبية من قيم وسلوكيات تتعارض مع القيم والسلوكيات التي ينشأ عليها في البيت والمدرسة والبيئة الاجتماعية. وينطبق هذا أيضاً على ما يُختار من الإنتاج الأجنبي المدبلج إلى اللغة العربية. وإذا كان من المفيد أن يطلع الطفل على الفكر الأجنبي للإفادة من إيجابياته فلا بد من الحرص على تفادي ما قد يحمل من سلبيات، وتكون الأولوية دائماً للإنتاج المحلي أو العربي المناسب.

- الاهتمام بقضية التدريب ورفع الكفاءة المهنية للمشاركين في إنتاج برامج الأطفال.

- أن تؤخذ قضية البحوث مأخذ الجد باعتبارها من الركائز الأساسية في تخطيط برامج الأطفال وإنتاجها (بحوث قبلية وتتبعية وبعدية وبحوث التأثير).

الفضائيات واللغة

ضمن عنوان النصائح، ثمّة أبواب كثير، أحدها التأثير التلفزيوني على اللغة.

ففي مقالة له على صفحات مجلة «العربي»[1] يوصي الطاهر خليفة القراضي الفضائيات العربية باعتماد خطوات جدية لحفظ نظافة وجودة الرسالة من الناحية اللغوية فبما أن الفضائيات تبث برامجها للعرب وباللغة العربية فعليها أن تستفيد من ملتقطيها وتفيدهم. ولتنجح في ذلك لا بدَّ لها من أن تحرص على شيئين اثنين لا يكون لها النجاح من دونهما، وهما:

أ - ضرورة التركيز على تقديم برامج هادفة تربوياً وأخلاقياً بشرط أن تكون معدة بأسلوب ترفيهي أو على صورة رسوم متحركة تتناسب مع أعمار الأطفال والشباب لأن هذه الفئة العمرية هي التي يجب أن تؤسس على أساس سليم، لتكون خير استثمار للوطن والأمة حاضراً ومستقبلاً.

ب - أن تكون هذه البرامج بلغة عربية سليمة ولكنها ليست لغة متقعرة، بل لغة إعلامية بسيطة يفهمها النشء المستهدف. ومن خلال

(1) الطاهر خليفة القراضي، العربي شباط 2006.

هذه الوسيلة ـ اللغة العربية السليمة البسيطة ـ يتعلم أبناؤنا بطريقة تلقائية التربية والأخلاق والمثل العليا إلى جانب اللغة العربية.

حفاظاً على اللغات في كل من إيرلندا، وويلز، والهند، فأنَّ الحكومات بهذه الدول استطاعت أن توظف الأطفال لخدمة اللغة، وذلك بأن حفَّزت الأطفال بمنحهم جوائز قيمة جداً لمن يقوم بإعداد أي عمل مبتكر بإحدى هذه اللغات.

وقد نتج عن ذلك أن الأطفال وجدوا أنفسهم مدفوعين لتعلم اللغة الصحيحة والسليمة، وبذلك تكون لديهم رصيدٌ لغوي كافٍ للحفاظ على لغتهم أمام أي زحفٍ عليها من أي لغة أخرى.

فماذا عن العرب وحكوماتهم وقنواتهم الفضائية في هذا الشأن؟

إنَّ القنوات الفضائية الناطقة بالعربية ـ أغلبها على الأقل ـ تمثل لسان حال الدولة أو السلطة. والذي نشاهده على شاشات الفضائيات العربية هو سياسة الدولة التي تبث منها كل واحدة من تلك الفضائيات.

إن لغتنا العربية قد أصبحت مهددة بعد 9/11 وستبقى محصورة في المساجد. فما لم تقم الحكومات العربية بتوظيف قنواتها الفضائية لخدمة اللغة العربية والحفاظ عليها فإن اللغة العربية ستتحول إلى تاريخ بدلاً من واقع معيش.

إنني أعتقد أن خير وسيلة لخدمة اللغة هو غرسها في النشء الصغير بسلاسة وتلقائية حتى يكبر وتكبر معه اللغة العربية السليمة كما لو كانت من سليقته.

إنَّ تلقين اللغة للكبار عن طريق دورات محو الأمية أو غيرها، لا يكون بالجدوى نفسها، التي تتم عندما يتلقى الطفل الصغير لغة سليمة منذ صغره بطريقة آلية طبيعية لا تكلف فيها.

إنّ المشاهد العربي يلاحظ أن الفضائيات العربية يمكن تصنيفها إلى[1]:

1 ـ فضائيات مغرقة في استعمال اللهجات المحلية، ومغرقة في إيراد المفردات والمصطلحات غير العربية. وهذا الصنف من القنوات الفضائية هو الغالب كمّاً على الفضائيات الأخرى. وهذه القنوات بها برامج تخص الأطفال وتشدّهم إليها ولكنها ليست بلغة فصيحة أو لغة سليمة. (المستقبل LBC مثلاً).

2 ـ قنوات فضائية لا تقدّم شيئاً باللهجات المحلية ولا تستعمل إلا اللغة العربية الفصحى ولكن هذه الفضائيات ليس بها أي برنامج أو فضاء أو ركن خاص بالأطفال. ولذلك فإن مثل هذه الفضائيات لا تخدم اللغة العربية من حيث إنها لا تستثمر الأطفال في هذه القضية (مثل الجزيرة). ومن حيث العدد أو الكم فإن هذا الصنف يأتي في المرتبة الثانية.

3 ـ فضائيات خاصة بالأطفال وهي قليلة جداً جداً وأهمها قناة (SPACE TOON) وهذه القناة فعلاً تخدم الطفل واللغة العربية معاً فبرامجها تخص الأطفال، ولغتها لغة عربية سليمةٌ وواضحةٌ وبسيطة تتماشى مع مستوى الأطفال عمرياً وتعليمياً. ولكن يؤخذ على هذه القناة أنها ليس بها نشرات خاصة بعالم الطفل. وهذا الصنف من الفضائيات ـ مع الأسف ـ هو آخر الأصناف من حيث العدد.

واجب الإعلام

فإذا سلمنا بأنَّ خير وسط لخدمة اللغة هو الطفل، فعلينا أن نفيد

(1) المرجع السابق.

الطفل ونستفيد منه، تربوياً وتعليمياً. وإذا سلمنا بأن الإعلام له على الأطفال تأثيرٌ كبيرٌ، فأنَّ دور الإعلام على الأطفال دورٌ خطيرٌ من حيث التنشئة والتعليم. ولذلك فإن من واجب الفضائيات العربية أن تشدّ النشء إليها حتى لا ينصرف إلى الفضائيات الغربية أو العربية الهدامة. فعلى الفضائيات العربية أن تعلم الطفل كيف يتعامل مع الثقافات الغربية بمعيار المقارنة والمفاضلة بين ما تقدّمه الفضائيات الغربية والفضائيات العربية وذلك من حيث[1]:

أ ـ تقديم ما يخدم الطفل ويربطه بالوسط الذي يعيش فيه وعدم التحليق به في عالم الخيال واللاواقع واللامعقول.

ب ـ تقديم ما يخدم الطفل من حيث الأخلاق والمثل والخصال الحميدة.

جـ ـ التناسب بين مستوى العرض ومستوى الطفل عمرياً وتعليمياً.

د ـ احتواء العرض على مشاهد وصور ترفيهية باهرة للطفل حتى ينشدَّ إليها فتنغرس فيه الخصال المرجوة والأهداف المنشورة لا شعورياً.

هـ ـ أن يكون العرض بلغة عربية سليمة ومبسطة حتى يفهمها الطفل المستهدف وتصبح جزءاً منه.

إنَّ الطفل العربي ـ كغيره من الأطفال ـ لم يعد رفيقاً للكتاب أو المجلة أو الصحيفة، بل أصبح لصيقاً بجهاز الاستقبال المرئي، فإذا لم نقدم له زاداً مفيداً يحميه حاضراً ومستقبلاً، فإنه سيصبح

(1) المرجع السابق.

صنيعة للفضائيات التي لا همّ لها إلا القضاء على المثل والأخلاق والصفات النبيلة.

لقد قام فريق من المختصين عام 1998 ـ تحت إشراف اتحاد الإذاعات العربية ـ بدراسات ميدانية في كلٍ من مصر، الأردن، تونس، الإمارات العربية، من بينها بحث أعدّه الدكتور محمد حمدان مع الأستاذ عبد القادر بن الشيخ بعنوان: «الجمهور العربي والبث التلفزيوني المباشر عبر القنوات الفضائية». وقد أثبتت هذه الدراسة وجود انخفاض ملموس في حجم مشاهدة القنوات التلفزيونية الوطنية (القُطرية) مقابل ارتفاع ملحوظ في مشاهدة الفضائيات الأجنبية والفضائيات العربية الأخرى. وأوضح البحث أن تدني مشاهدة الفضائيات المحلية يرجع إلى[1]:

1 ـ رغبة المشاهد في الخروج من السجن المفروض عليه من قبل القنوات المحلية الرسمية.

2 ـ إنَّ الإنتاج المرئي الأجنبي يظهر دائماً بصورة جيدة وذلك لجودة إنتاجه بغض النظر عن محتواه، وهذا خلاف المنتج المحلي الذي لا يتّسم بالجودة التقنية مع احتمال جودة محتواه.

كما أثبتت الدراسة أيضاً أن شريحة الشباب أكثر إقبالاً على مشاهدة الفضائيات الأجنبية من شريحة الكهول والشيوخ.

إنَّ المجتمع ـ أي مجتمع ـ هو جماعة ممَّن كانوا يوماً ما صغاراً. فعلينا ألا نهمل شريحة أساسية من شرائح المجتمع وهي الطفل. وهذه الشريحة لا غنى عنها في أي مجتمع، فلا مجتمع بلا أطفال، ولا مشاهير أو علماء أو عظماء قبل أن يكونوا أطفالاً.

(1) المرجع السابق.

ولذلك فإنني أطلب - إذا جاز لي ذلك - من أغلب الفضائيات العربية ألا تستصغر الأطفال فتهملهم ولا تكترث بهم. ولربما نقترح عليها أن تستحدث نشرة أخبار خاصة بالأطفال تحت أي اسم. بشرط أن تكون بلغة عربية إخبارية بسيطة ويكون همها بالدرجة الأولى تثقيف الطفل وتعريفه بما يدور حوله وفي عالمه ومجتمعه.

وفي هذه الحالة تكون الإذاعة من خلال هذه النشرة قد حققت أكثر من هدف منها[1]:

1 - الحرص على كسب الأطفال، وعدم إهمالهم، وربطهم بإحدى القنوات الفضائية العربية حتى تكون العلاقة التي تنشأ بين الطفل وهذه القناة علاقة محبة تجعل الطفل يتعلق بها فينفق معها شيئاً من وقته.

2 - بما أنَّ القناة تهدف إلى خدمة المواطن العربي، فأنَّها ستقدم ثقافةً ومعلومة للطفل، كما أنها ستقوم بتعليم الطفل لغته الصحيحة بطريقة تلقائية لا تلقينية.

3 - إذا أرادت الفضائية كسباً مادياً فبإمكانها أن تمرِّر بعض الإعلانات الدعائية والإشهارية المتعلقة بالطفل حيث هناك الكثير من المنتجات التي لا يمكن تمريرها إلا من خلال برامج الأطفال.

فمما سبق يتضح أنّ أطفالنا في حاجة إلى:

1 - فضائيات تنطلق من أرضية عربية صحيحة بحتة وليست استنساخاً من إذاعات غربية.

2 - فضائيات تقدّم برامج ذات إنتاج جيد راقٍ يشد المشاهد إليها.

---

(1) المرجع السابق.

3 ـ فضائيات تقدم إنتاجاً ترفيهياً يحمل القيم والمبادىء والخصال المراد غرسها في لا شعور الطفل.

4 ـ فضائيات تهتم بسلامة النطق أثناء تقديم كل برامجها بحيث تكون اللغة متواكبة مع مستوى العمر المستهدف ومستوى تعليمه.

5 ـ فضائيات تهتم بسلامة الإملاء وذلك في الإعلانات أو الأخبار التي تكتب على شاشات أجهزة الاستقبال.

6 ـ فضائيات قادرة على تحفيز الأطفال ودفعهم إلى التنافس من أجل الحصول على جوائز وهدايا مقابل إسهامهم أو تميّزهم في أي مجال من مجالات الإبداع.

7 ـ فضائيات قادرة على استقطاب الصغار والكبار من خلال إجراء مسابقات على الهواء تتعلق باللغة العربية نحواً وصرفاً وأدباً... إلخ، بحيث تنظم لها بطولات دورية سنوية أو نصف سنوية أو شهرية.... إلخ. وربما يستفاد من برنامج (سوبر ستار) الذي تقدمه قناة المستقبل، في كيفية تنظيم مثل هذه المسابقات.

8 ـ فضائيات تشجع الكتّاب والمبدعين والمنتجين وذلك لإنتاج مسلسلات خاصة بالأطفال، أو رسوم متحركة تعتمد على عنصري الترفيه والتشويق وتحتوي على القيم والأخلاق وتُقدّمُ بلغة عربية بسيطة وسليمة. فقد يحسن التركيز على تجسيد مشاهد من التاريخ العربي أو الإسلامي المشرّف، أو شخصيات مرموقة تمثل العروبة والإسلام، أو قصص من القرآن الكريم تصوّر فوائد الإيمان والصدق والعفّة والنزاهة في مقابل الخسران لأصحاب المثالب والمناقص... إلخ، أو قصص حياة المشاهير من العلماء، ودورهم في خدمة البشرية قاطبة. وربما يقعُ على اتحاد الإذاعات العربية عبءٌ من هذه

الأعباء وذلك بالإنفاق أو الإسهام في إنتاج بعض هذه المواد ولو كان ذلك بالتنسيق مع جامعة الدول العربية بصفة عامة أو مع منظمة التربية والعلوم والثقافة العربية (الألكسو) أو باللجوء إلى إحدى الدول المانحة لتمويل بعض هذه الفضائيات أو هذه البرامج.

الفهرس

مقدمة 5
الأبعاد السلبية 7
العنف على الشاشة 9
التلفزيون يزيد أطفال أميركا عنفاً 12
أطفال اليمن ضحية العنف التلفزيوني 12
انعدام الحس 13
أسر الخيال 16
تعداد السلبيات 18
جدل حول صحة الطفل 19
نقص التلقائية 22
ثقافة أطفال السعودية 23
المشاهدة المقنّنة 24
الطلاب وتشفير المحطات 26
التلفزيون في غرفة النوم 28
رسائل الإعلانات الموجهة 31
الإعلان الموجه للطفل 33
غزو المدارس إعلانياً 35
تأثير الإعلانات على صحة الأطفال 38
حماية الأطفال من إعلانات الأطعمة غير الصحية 40
لا لإطعام الأطفال أمام التلفزيون 42
إعلانات وأرقام 43
الدعاية السياسية الموجهة للطفل 47
الكرتون بمواجهة بن لادن 47

وباتمان يحارب (القاعدة) 48
القاعدة ترد 49
«بكّار» ومحمد الدرة 51
«بكّار» وقمة الألفية 52
«سبايس تون» و«الصحة العالمية» 53
السنافر تحت الركام في إعلان 54
.. وللشاشة إيجابيات 57
التلفزيون بريء من التهمة؟! 59
الكرتون كمسكن للألم 61
علاج للأطفال 62
الشاشة وتحفيز الدماغ 65
الطفل ومشاهد العنف 70
التربية الترفيهية 72
عنف ألعاب الفيديو 77
ابتكارات متسارعة 79
الصراع العربي ـ الإسرائيلي 84
موت حقيقي 86
ألعاب جنسية 87
القرن الواحد والعشرون 88
ألعاب إنسانية 89
مع وضد 93
الأهل ينافسون الأبناء 95
نصائح 97
شروط المشاهدة 99
لكل عمر مادة متخصصة 109
الفضائيات واللغة 111
واجب الإعلام 113